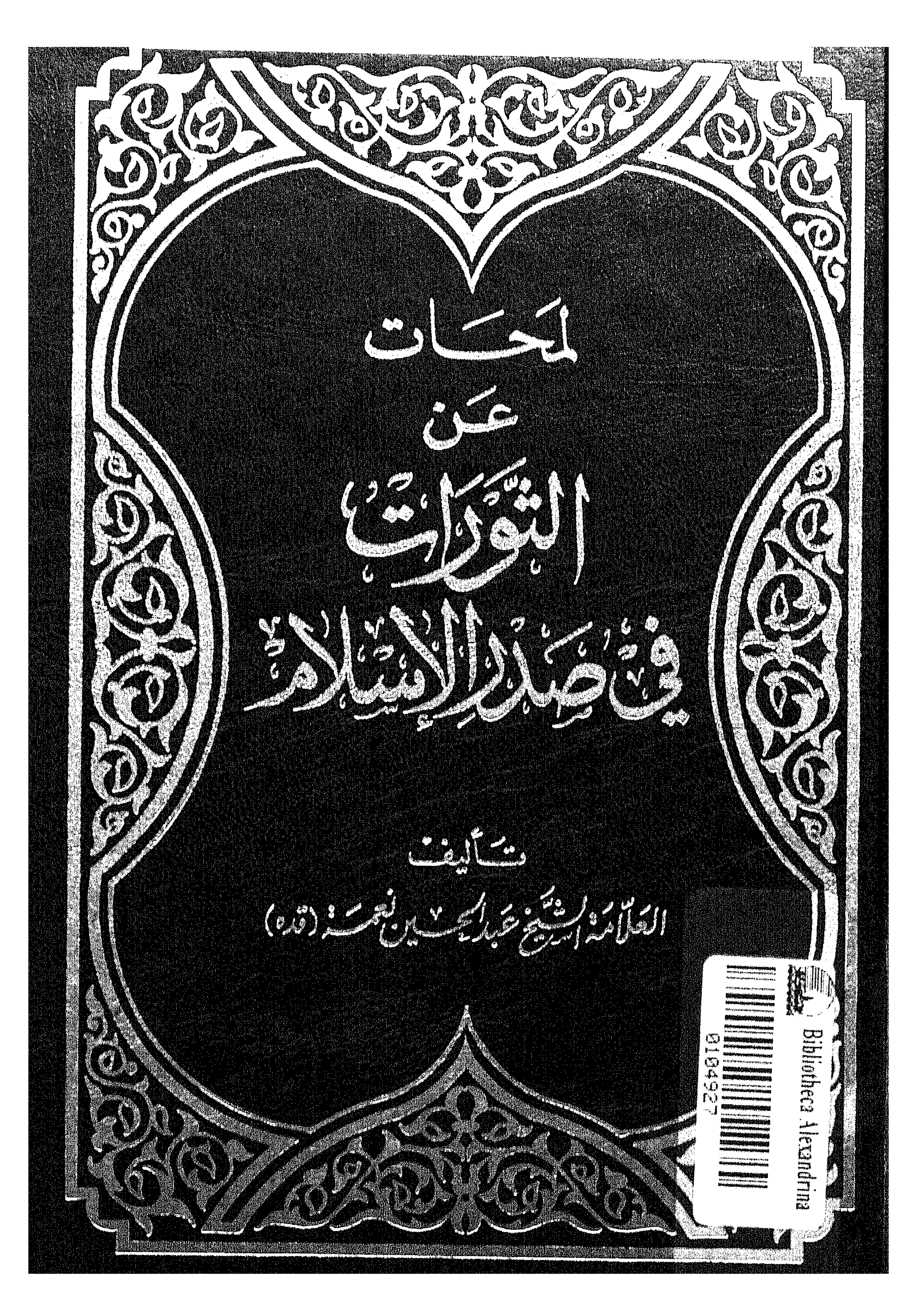

لمحات
عن
الثورات
في صدر الإسلام
تأليف
العلامة الشيخ عبد الحسين نعمة (قده)
Bibliotheca Alexandrina
0104927



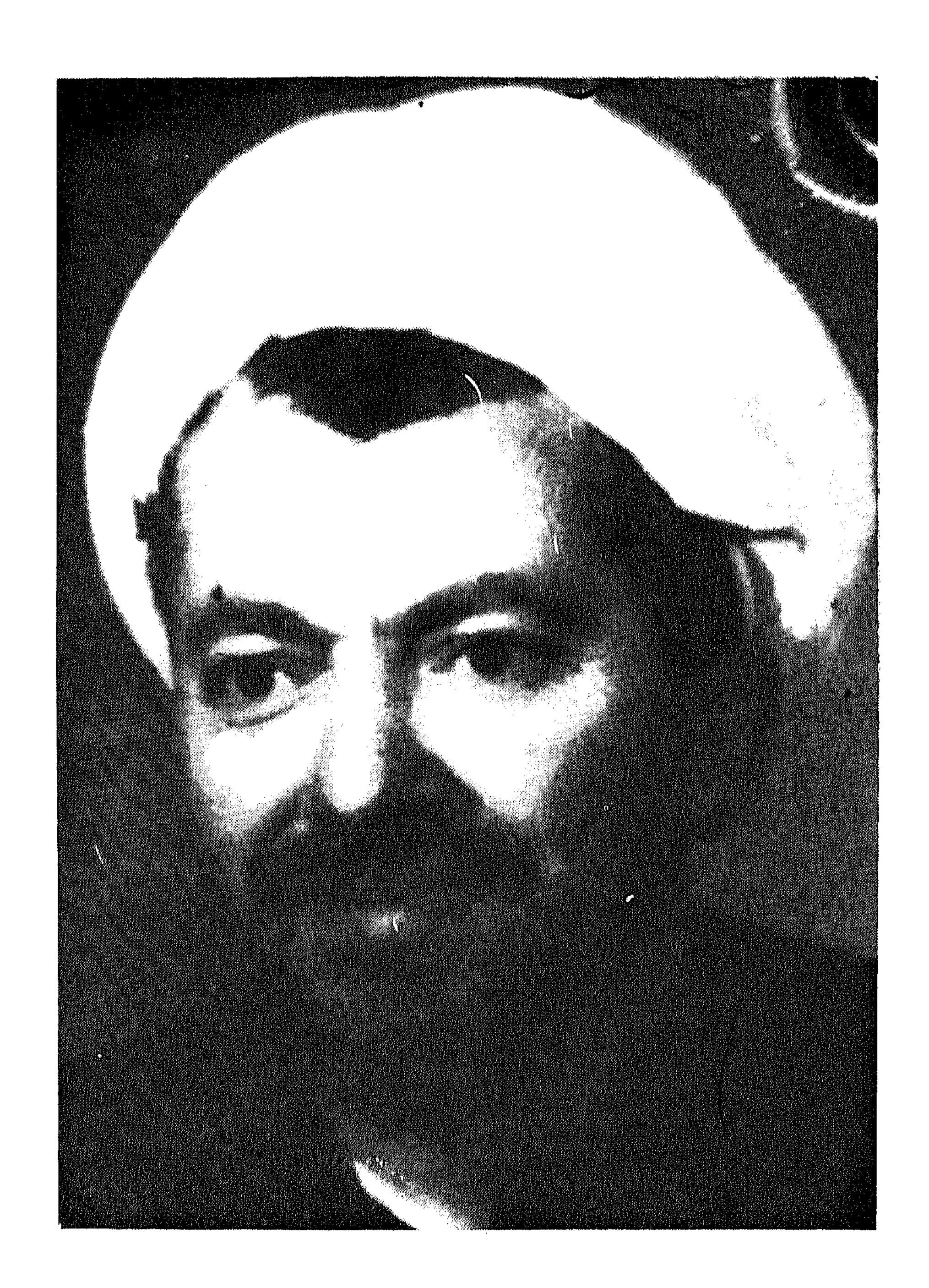




لمحات عن الثورات

فـــي

صـــدر الإســلام



لمحات عن الثورات
في
صدر الإسلام

تأليف

العلاّمة المقدّس

الشيخ عبد الحسين نعمة (قده)

الطبعـــة الأولـــى
١٩٩٨

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القراء الأعزاء

إنه الكتاب الأول، وستليه كتب أخرى لسماحة العلامة المقدس.

الشيخ عبد الحسين نعمه.

عبر حياته المليئة بالتحصيل كانت له آثار كثيرة أنجزها بين النجف وحبوش، وبقيت مخطوطة أو هكذا شاء لها.

واليوم. برّاً برجل التاريخ الإسلامي، ووفاءً من العائلة لروحه الطاهرة وحياته الأبية التي ابتدأت شامخة وانتهت شامخة، اتكلنا على الله وصممنا على طباعة ما تبقى من مخطوطاته بعد أن ضاع كثير منها خلال موجات التهجير وحمى الحرب الصهيونية.

وها نحن نضع بين أيديكم أول أقحوانة من بستانه الوارف، علَّ عينه تقر وهو بعيد عنا قريب منا في دار صدق عند مليك مقتدر. فلتنعم أبا حسن في ملكوتك الأعلى. أيها الشامخ المجيد، وشمس الحق التي نزفت جراحها قرابين في وطن تأكلته وتتأكله الأطماع والأغراض، هكذا كنت تصارع بصمت وهدوء، وتعض على الجراح بحكمة ومناقبية. هذه باكورة آثارك تبصر النور، وكأني أتخيلك تحتفل معنا بصدورها. بشراك.. لن نخذل جهودك التي وشحت وزخرفت فصولاً من المعرفة.

بعض وفاء لتاريخك المناضل ولروحك الطاهرة.

د. حسن جعفر نور الدين

حبوش في 27 / 12 / 1997



مُقَدِّمَة

تاريخنا الإسلامي مليء بالثورات، والانتفاضات، وهذه وتلك قد اختلفت أسبابها، ودوافعها، كما قد اختلفت آثارها، ونتائجها، واختلفت أيضاً في طورها الدموي، مما يحفل بالباحث أن يقف حولها موقف المتأمل، ولما كان بعض هذه الثورات يهدف إلى قلب نظام وإقامة نظام، وتغيير مبادىء ودساتير كثورات الخوارج، والقرامطة، وبعضها الآخر يهدف إلى إقامة عدالة اجتماعية صرفة كثورة الحسين (ع) وزيد، بل ويحيى بن زيد، ومنها ما كان هدفها الأول والأخير هو حب السيطرة والسلطة كثورة آل المهلب وغيرهم.

ولما كانت هذه الثورات مختلفة في آثارها ونتائجها، كاختلافها في أسبابها، ودوافعها، إذ أن منها ما انتصر عسكرياً وسياسياً كثورة الخراسانيين والعباسيين بقيادة أبي مسلم الخراساني؛ ومنها ما كان انتصارها مبدئياً فقط، وإن فشلت

عسكرياً كثورتي الحسين (ع)، وزيد؛ ومنها ما انتصر عسكرياً، وفشل سياسياً كالثورة على عثمان يوم الدار.

كما أن من هذه الثورات ما كان له أثره البعيد المدى في حياة الأمة الإسلامية، كثورتي يوم الدار، ويوم الطف، ومنها ما لم يكن لها أثر إلا حال قيامها، وقد انعدم أثرها بانتهاء طورها الدموي كثورة آل الزبير، عُبد الله بالحرمين، ومُصعب بالعراق.

لهذا كله كانت هذه الثورات جديرة بالبحث، والتنقيب، والدراسة، لكشف الغطاء عن اسباب دوافعها؛ ومعرفة آثارها، ونتائجها القريبة، والبعيدة المدى؛ شرط أن يكون هذا البحث مجرداً عن العصبيات المذهبية، والعنعنات الطائفية. إذ أن كل بحث يُسيِّرُه العطف المذهبي يخرج عن جادة الصواب، ويميل بالباحث عن الطريق المستقيم.

ولقد أخذنا على أنفسنا في دراستنا هذه، عن أسباب ودوافع هذه الثورات، وعن آثارها ونتائجها، العمل للعلم، وللعلم وحده، والتجرد عن جميع النزعات الطائفية، والعصبيات المذهبية، ومن الله نستمد العون.

وإننا لنتبع في دراستنا هذه التسلسل الزمني لهذه الثورات؛ فندرس أولاً الأولى، ونتبعها بما تأخر عنها زمناً، وتاريخاً.

وقد جعلنا دراسة كل ثورة ذات ثلاثة فصول، فصل في طورها الدموي، وفصل في أسبابها ودوافعها، وفصل في آثارها ونتائجها.

وإننا إذ نقدم هذه الدراسة خدمة لشبابنا المثقف النيّر، وأجيالنـا الصـاعدة، في سلم العلم والمعرفة، لا نبتغي من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، فإن لاقـت قبـولاً فالله نحمد، وإلا:

فعلى المرء أن يسعى بمقـدار جهـده　　وليـس عليـه أن يكـون موفقـاً.

المؤلف

الباب الأول

■ ثورة يوم الدار

الفصل الأول

١ ـ الثورة في طورها الدموي

في سنة ٣٥ للهجرة، دخلت المدينة جموع كثيرة من المصريين بقيادة عبد الرحمان بن عديس الشلوي، وكنانة بن بشر النجيبي وغيرهما، ومن الكوفة بقيادة مالك بن الحارث النخعي ـ الأشتر ـ ، ومن البصرة بقيادة حكيم بن جبلة العبدي؛ جاؤوا يوهمون الناس أنهم يريدون الحج، ولم يكن قصدهم إلا الضغط على عثمان لتحسين سياسته وتغيير عماله ورد الفيء إلى أهله، وتوزيع الأموال على المسلمين بالسوية؛ والضغط عليه بأن يعتزل إذا لم يبدل من سياسته؛ إجابة لكتب [١] وردتهم من الصحابة يحثهم على جهاده وذكر في مروج الذهب أن عدد [٢] المصريين والكوفيين والبصريين الذين تصدوا لعثمان كان تسعمائة رجل؛ ومثله ذكر الطبري في تاريخه [٣] ؛ إلا أنه في شرح النهج جعلهم أكثر[٤] .

(١) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ، ص ٤٠٤ .

(٤) شرح النهج، ج ١ ، ص ١٤٠ .

نـزل المصريـون في ذي خشـب[1] وكتبـوا إلى عثمـان مـن مكـانهم ذاك، يطلبون منه تغيير سياسته، وعزل من لا يرضون من عماله؛ وهذا هو الكتاب:

" بسم الله الرحمن الرحيم: (أما بعـد فـاعلم أن الله لا يغـير مـا بقـوم حتـى يغيروا ما بأنفسهم، فالله الله، ثم الله الله، فإنك على دنيا فاستتم معهـا إليهـا آخـرة، ولا تلبس نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدنيا؛ واعلم أنـا والله لله نغضـب وفي الله نرضى، وإننا لن نضع سيوفنا عن عواتقنـا حتـى تأتينـا منـك توبـة مصرحـة، أو ضلالة مجلحة مبلجة؛ هذه مقالتنا لك، وقضيتنا إليك، والله غديرنا منك والسلام).

ويظهر أن كثيراً من أهل المدينة، من الأنصـار والمهـاجرين كـانوا يوافقـون الثوار في ثورتهم، إلا أنهم كانوا يأملون بثورة على الخليفة من خارج المدينـة، فلمـا وصل المصريون، نفثوا ما في صدورهم، ووجهوا إلى عثمان كتاباً يدعونه إلى التوبـة ـ كما يقول الطبري ـ ويحتجـون، ويقسـمون لـه بالله؛ لا يمسـكون عنـه أبـداً حتـى يقتلوه، أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.

قابل المصريون، علياً فردهم أقبح رد، وقال لهم[2] : (قد علم الصالحون أن جيـش ذي المـروة، وجيـش ذي خشـب، والأعـواص ملعونـون علـى لسـان محمد ﷺ، ورجع الكوفيون والبصريون).

ولكن ما هال الناس إلا تكبير في نواحـي المدينة، ونداء في أنحائها: يا أهل

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٢.

(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٤٢.

المدينة! من كف يده عن الحرب فهو آمـــن[1] ، وقالوا: إنهـــم لا حاجة لهم بقتل الخليفة وإنما قصدهم أن يعتزل أمورهم ليولوا غيره، وحصـروه في بيتـه، إلا أنهـم لم يمنعوا الناس عن مقابلته، و لم يمنعوه شيئاً يحتاجه، كان طلبُ المصريين معقولاً جـداً، ولو أجابهم إلى طلبهم لهان الأمر، فقد طلبوا عزل[2] عامله على مصر عبـد الله بـن أبي سرح لما بدرت من هذا العامل من أعمال لا تتفق والإسلام بشيء، وخصوصـاً إباحة الدم المحرم، لقتله [3] رجلاً ممن أتى عثمان سابقاً، وطلبوا مقاضاة الـوالي ابـن أبي سرح في قتله صاحبهم.

وسفّر الثوار بينهم وبين عثمان سفراء منهم أم المؤمنين عائشة، وطلحة بـن عبيد الله التيمي، وعلي بن أبي طالب، وكان طلحة أشدهم بل أشد الصحابة عليـه، وكلمه علي (ع) في مطالب القوم وأخبره أن في إجابة طلبهم القضاء على الشـر في مهده.

لكن من المؤكد أن هناك جماعتين تعملان على إشعال نار الفتنـة، واشـتداد أوارها يرأس الأولى طلحة وعائشة، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص القائل لما بلغه قتل عثمان وكان قد ترك المدينة إلى فلسطين في أثناء الحصار: أنا أبو عبـد الله[4] إذا نكأت قرحة أدميتها. وهو القائل قبل ذلك وقد سأل عنه فأجيب بأنه محصور: العير يضرط والمكواة في النار. ولما قال له سلامة بن ردح يا معشر قريش إنما كان بينكـم وبين العرب باب فكسرتموه! أجابه عمرو: نعم أردنـا أن يخـرج الحـق مـن خـاصرة الباطل.

---

(١) نفس المصدر.
(٢) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢١٥.
(٣) نفس المصدر .
(٤) شرح النهج، ج١ ، ص ٤٣ .

والجماعة الثانية، هي تقاعس الأمويين، فمنهم من يحمل عثمان من الأمور ويفسد بينه، وبين رعيته كمروان بن الحكم [١] ، الداخل بين عثمان وبين رعيته، ومعاوية بن أبي سفيان، فإنه كان بإمكانه نصر عثمان، فلماذا لم يفعل؛ أرسل[٢] معاوية جيشاً من اثني عشر ألف محارب، وأمرهم أن يكونوا على الحدود السورية الحجازية، وأن لا يجاوزوا موضعهم خطوة واحدة حتى يأتيهم أمرهُ، فرابط هذا الجيش بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري في مكانه لا يتقدم خطوة حتى قتل عثمان، فقفلوا إلى الشام راجعين.

لماذا لم ينصر معاوية عثمان؟ ولماذا انتظر له القتل؟ اليس تربصه لقتله ليجعلها حجة ووسيلة لطلب الخلافة والسلطة، فمعاوية كان يعلم علم اليقين أنه بدون مثل هذه الوسيلة لا يصل إلى ملك أو سلطان بل لا تبقى ولايته على الشام.

وربما كان مروان على اتفاق مع معاوية فحمل العبء كله بغية إفساد قلب عثمان على الرعية، وقلب الرعية على خليفتها فكلما أبدى أحد الصحابة الرأي المصيب في[٣] إسكان الثائرة، وحفظ الدم يأتي مروان فيفسد ما أُبرم ويحل ما ان انفتل؛ وكم من مرة وقع الجدال والنقاش بين مروان ونائلة زوجة عثمان، وقالت له مرة بعد أن أذعن عثمان للوساطة: أتتكلم أم أسكت؟ فقالت نائلة: بل تسكت، إنكم والله قاتلوه، وميتمو أطفاله، أنه قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها.

كان بإمكان عائشة، وطلحة، والزبير معاونة علي ومن قام معه للدفاع عن

(١) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٣ .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٣) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٤.

عثمان في رد الثائرين؛ ولكن هؤلاء كانوا بين محرض للثوار[1] كطلحة وعائشة، ومنخذل عن نصرته كالزبير وكثير من المهاجرين؛ ووقف باقي الصحابة وأبناؤهم موقف المتفرج.

بل لقد جابهت عائشة عثمان مرة، إذ دلت قميص رسول الله ﷺ إلى المسجد ونادت: يا معشر[2] المسلمين! هذا جلباب رسول الله ﷺ لم يَبْلُ، وقد أبلى عثمان سنته.

بل لقد جاهرت برأيها في الرجل حين سار إليها مروان ـ وقد تجهزت للحج ـ يطلب منها التوسط بين عثمان والثائرين؛ واعتذرت أولاً بأنها تجهزت للحج، فقال لها مروان: يُدفع لك بكل درهم نفقته درهمين.

والظن أن أم المؤمنين لم تعد قادرة على حفظ سرها ورأيها في عثمان فجابهت مروان بأشد من وخز الإبر. وقالت له: لعلك ترى أني في شك من صاحبك؟ أما والله[3] ! لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري، وإني أطيق حمله فأطرحه في البحر؛ على أن أم المؤمنين جاهرت برأيها قبل ذلك لما كاتبت المسلمين هي وبعض الصحابة تطلب منهم جهاد عثمان[4] ــ ويظهر أن الثائرين في بدء ثورتهم لم يكونوا مصممين على قتل عثمان بل على عزل عماله وخلعه نفسه من الخلافة إن لم يجب لمطالبهم فوسطوا علياً (ع) وطلحة وعائشة.

---

(١) الفتنة الكبرى ، ج ٢ ، ص ٥ ـ ٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٣) نفس المصدر.

(٤) سيأتي كلامها في الفصل الثاني.

وأثرت الوساطة أثرها المحمود؛ فأرسلت[1] عائشة إلى عثمان تقول له: تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ، وسألوك عزل هذا العامل فأبيت وقد قتل رجلاً منهم، فأنصفهم من عاملك.

ودخل عليه علي (ع) فقال له: إنما يسألونك[2] رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً؛ فأعزله عنهم، وأقض بينهم، فإن وجب لهم عليه حق فأنصفهم منه.

وأما طلحة فلم يواجه عثمان بشيء بل كان كلامه إلى عيب عثمان، أقرب منه إلى الصلح.

وقبل عثمان وطلب إليهم أن يختاروا رجلاً يوليه مصر؛ فأشاروا عليه بمحمد بن أبي بكر[3] .

لم يمانع عثمان في ما طلبوه بل كتب ولاية الحكم على مصر لمحمد بن أبي بكر، وخرج القوم مشمرين إلى بلادهم.

ظن الناس في المدينة من صحابة، وتابعين، وغيرهم أن الثائرة قد هدأت واستتب الأمن، وفرغت قلوب الناس، ولكن لم يمض وقت طويل ذكره المؤرخون أنه ثلاثة أيام حتى عاد المصريون[4] وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر، ومعهم غلام لعثمان على ناقة من إبل الصدقة، ومعهم رسالة إلى عامل مصر الأول عبد الله بن سعد بن أبي سرح، يأمره فيها بقتل بعض رؤساء المصريين، الذين كانوا على رأس الثوار، وبصلب بعضهم، وجلد بعض آخر.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٣ .
(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٣ .
(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ، ص ٣٣.
(٤) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

رجع المصريون هذه المرة مصممين على قتل عثمان إن لم يعتزل الخلافة .

وأنكر عثمان أن يكون قد كتب[1] أو ختم أو أرسل أحداً إلى مصر وهو صادق بلا شك، ولكن هناك أيدياً تلعب بالخفاء وتصيد في الماء العكر، وهم بنو أمية وعلى رأسهم مروان، يضعون الزيت في النار ليرتفع لهبها، ليقتل عثمان فيتخذ مع بني أبيه وعشيرته الحجة والوسيلة للسلطة والملك، وعرف مروان ومعاوية[2] ، أن قتل عثمان سيكون الوسيلة لهم إلى اجتذاب الناس حولهم، وأما إذا صلحت الأمور بين الرعية وراعيها، فيصعب عليهم الدخول إلى بغيتهم بل يستحيل عليهم البقاء في ولاية هم حكامها.

فمروان هو الذي كتب الكتاب عن لسان الخليفة لعامله بمصر، بل أمر الرسول أن يتراءى للقوم حتى يستولوا على الكتاب منه، وبذلك ترجع الثورة إلى ما كانت عليه، بل أشد ضراماً.

وكان ما أراده مروان، فرجع المصريون يطالبون[3] عثمان باعتزال أمرهم لأنه إن كان صادقاً في أنه لم يكتب فيهم الكتب - وهو صادق بلا شك - فهو ضعيف لا يصلح للخلافة، وإن كان كاذباً فلا يصلح بطريق أولى، هذه كانت دعوى المصريين، وهذه كانت حجتهم، وقد صمموا على قتله إذا لم يعتزل أمرهم.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٢٨، حين يطلب معاوية من عثمان أن يجعل له الطلب بدمه.

(٣) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٢٠.

هل كان المصريون على حق؟ والذي لا مرية فيه، أن عثمان صادق في دعواه وأن الكتاب كُتِب، وختم بخاتمة، وأُرسل مع غلامه على ناقة من إبل بدون علم، فهو صادق في ذلك، ولكن ذلك يدل على ضعفه بلا شك وربما كان تقدمه في السن زاد في ضعف شخصيته أمام أرحامه؛ وهذا الضعف لم يكن بأي قانون سبباً للقتل، بل هو عذر للمخطيء يتقبل منه؛ ولكنه ليس عذراً في تولي الأمور مطلقاً.

رجع المصريون وبقية أهل الأقطار، رجعوا بضغط أشد من المرة الأولى، وبتنمر أكثر، ومنعوا عثمان الماء أن يستقيه برأي طلحة[1] إذ قال للثوار أن عثمان لا يبالي ما حصرتموه، وهو يدخل إليه الطعام، والشراب، فامنعوه الماء أن يدخل عليه.

لما منع عثمان الماء استنجد علياً [2] وبعض الصحابة، وأمهات المؤمنين، لينجدوه بالماء؛ فجاء علي بماء في روايا ولكن القوم أبوا أن يدعوه يدخل فرمى عمامته إلى الدار ليعلم عثمان أنه قد أحضر الماء ولكنه لم يتمكن من إدخاله، وأنجدته أم حبيبة أم المؤمنين فمنعت من الدخول عليه وقطعوا حبائل بغلتها حتى كادت تسقط فتلقاها الناس؛ وكان علي قد تمكن في مرة سابقة أن يوصل الماء إليه. وإنه لعمل ـ أي منع الماء عن عثمان ـ بشريعة الغاب أشبه منه بأعمال انسان، وهب أن عثمان كان مخطئاً أو مستحقاً للقتل بنظرهم فما بال النساء والصبية والأطفال.

وقبل أن ندخل في ذكر المعركة الحاسمة لا بد وأن نذكر الثوار الذين

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٤ .
(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤١٧ .

باشروا الحصار الأخير والذين تولـوا قتـل الخليفـة؛ ذكـر الطـبري[١] أن حكيـم بـن جبـلة قد اعتزل بأهل البصرة الفريقين الثوار وعثمان، وكذلك اعتزل الأشـتر بـأهل الكوفة، فلم يشاركوا في قتله أو في حصاره الأخير، وإنما الذي تولى حصار الخليفة، وقتله، ومنعه الماء قبل ذلك هم المصريون.

ثم إن القوم دخلوا على عثمان، يتقدمهم ابن عديس المصري، وعرضـوا[٢] عليه لآخر مرة الخلع أو الحرب فأبى الخلع ونهى كل أحد في داره أن يحمل سـلاحاً للدفا ع عنه، بل حرر كل عبد في ملكه، إذا ألقى سلاحه و لم يحارب الثـوار، وهـذا ما تأبى كتب التاريخ إلا أن تجعله من الموضوعات المتسامحة فهل الروايـة مـن وضـع الوضاعين وخلق الكذابين أو هل رأى عثمان أن جميع المسـلمين انخذلـوا عنـه فلـو أمرهم بالحرب لم يكن ليجد سامعاً ومطيعاً.

ولما أبى عليهم أن يخلع نفسه من الخلافة خرجوا مـن عنـده بعـد أن آذنـوه بالحرب وبعد أن طلبوا مروان لأنه كَتَـبَ إلى عـامل مصـر بقتـل بعضهـم، وصلـب آخرين فأبى عليهم ذلك أيضاً.

واشتد حصار القوم واضطرب الناس بأسيافهم، وبلغ عليـاً الخـبر أن القـوم أحالوا الثورة إلى معركة دموية فأرسل[٣] ولديه الحسن والحسين وأمرهما بـالوقوف بأسيافهـما على باب دار عثمــان يدافعــان عنـه ويــمنعــــان مـن اراد دخولها

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٣ ، ص ٤١١ .

(٢) نفس المصدر، ص ٤٠٩ .

(٣) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٦.

من الثوار، وخجل طلحة والزبير وغيرهم من شيوخ الصحابة فبعثوا أولادهم مع الحسنين. وفي أثنائها ارتث مروان حتى ظُن أنه مقتول وجُرح[1] الحسن (ع) ، وشُجَّ قنبر مولى علي (ع).

وخاف الثوار أن يعلم بنو هاشم بأن الحسن جُرح فيأتون ويدفعون الثوار، فذهبوا يتسورون[2] على عثمان الدار من دار أحد بني حزم، واشتدت المعركة على الباب.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤١٤ .

٢ ـ مقتل عثمان

المتسورون على عثمان جماعة من الثوار. دخل عليه محمد بن أبي بكر، فجادله عثمان بكلام[١] تركه بعدها محمد و لم يصبه بجرح من سيف أو رمح أو سهم؛ ثم دخل عليه رجل يقال له الموت الأسود فخنقه، ثم دخل عليه رجل مصري أهمل التاريخ اسمه ضرب عثمان بحرز، ثم دخل ثالث من المصريين، فوضع سيفه في بطن عثمان، فأمسكت نائلة السيف فحز أصابعها ومضى السيف في بطن عثمان[٢] حتى قتله، وفي الطبري[٣] أن الذين تولوا قتل عثمان هم عبد الرحمان الغافقي التجيبي، وقيل أن قاتله كنانة ابن بشر التجيبي[٤] ، وقتيرة، وسودان بن حمران السكونيان، قتلوه تالياً لكتاب ربه حتى سال دمه على كلام الله العزيز؛ وقُتل السكونيان بُعَيدَ مقتل عثمان بلحظات.

وبقتل عثمان انتهت بجزرة رهيبة كانت بداية الانشقاق الإسلامي ولا تزال تحمل الشيء الكثير من تبعاته، ولما أُبلغ علي (ع) [٥] ، قتل عثمان جاء

---

(١) الطبري، ج ٣ ، ص ٤١٥ .
(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٩ .
(٣) الطبري، ج ٣ ، ص ٤٢١ .
(٤) الطبري، ج ٣ ، ص ٤٢٣ .
(٥) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٤٠.

كالواله، فضرب الحسن والحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بـن الزبـير؛ فسأله طلحة لم ضرب الحسن والحسين فقال له علي (ع) : أيقتل أمـير المؤمنـين و لم تقم عليه بينة، ولا حجة، فقال طلحة لو دفع مروان لم يقتل. وأجابه علـي (ع) لـو دفع مروان لقُـتِل.

وقد حوصر عثمان تسعة وأربعين ليلة [1] وقيل غير ذلك.

وبقتل عثمان طوي عهـد الاستقرار عنـد المسـلمين، وابتـدأ عهـد التفـرق والتشتت والانقسام.

ولو أنصفنا أنفسنا لوجدنا أن المسبب لقتـل عثمـان هـم قـادة الثـورة علـى علي (ع) يوم الجمل، ومعاوية ومروان وسائر أمية



(١) الطبري، ج ٣ ، ص ٤١١ .

الفصل الثاني

أسباب الثورة ودوافعها

عرفنا في الفصل السابق بعضاً من مسببي الثورة ومحركيها وعرضنا أسماءهم، ولكن ما هي الأسباب التي دعت إلى هذه الثورة المشؤومة على رجل كان هامة يوم أو غده.

اتفق المؤرخون على أسباب محصورة طعن المسلمون يومذاك فيها على عثمان وجابهوه بها.

جابهته بها عائشة أم المؤمنين حين دلّت قميص رسول الله ﷺ إلى المسجد وقالت: يا[1] معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته. وجابهه بها عمرو بن العاص: حين يصيح به في المسجد: اتق[2] الله يا عثمان فقد ركبت بنا نهابير، وركبناها معك، فتب إلى الله نتب. وجابهه بها جمهور من الصحابة من المهاجرين حين يكتبون إلى أهل الأمصار من

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٢) الطبري، ج ٣ ، ص ٣٩٥ .

المسلمين[1] بأن يتداركوا خلافة رسول الله ﷺ لأن السنة قد غيِّرت، وكتاب الله لا يعمل به، والفيء قد حُمي من جماعة خاصة من المسلمين، وأن الخلافة قد ذهبت بهجتها وأصبحت ملكاً عضوضاً، أو كما زعموا. وجابهه غير هؤلاء.......

ولقد حصر بعض السابقين المآخذ على عثمان بأحد عشر مأخذاً سموها المطاعن، فلنشر إليها بإيجاز لنرى إن كانت كافية للثورة عليه وقتله، أو هناك محركات أُخر هي التي سببت قتل الخليفة.

كان عثمان أحب إلى قريش من عمر، لشدة عمر، وليونة عثمان حتى أنه بدا استياء كثير من شيوخ الصحابة لاستخلاف عمر، وحتى قال طلحة لأبي بكر[2] : استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف إذا خلي بهم، وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيتك، ومثل هذه الشكوى غيرها، وأما عثمان فلم يشكُ أحد شدة في خلقه أو غلظة.

ولكن يظهر أن هذه الليونة في عثمان كانت ضعفاً كما سنعرف.

وأما المطاعن، أو المآخذ التي نُقِمَ على عثمان بسببها فهي[3] :

أولاً : تعطيله الحد عن عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان، وعفوه عنه، وقد أوصى عمر بقتل عبيد الله إن ثبتت عليه التهمة، وقد ثبتت وعفا عنه عثمان بدعوى أن ليس للهرمزان ولي، ومن لم يكن له ولي، فالسلطان أو

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) الطبري، ج ٢ ، ص ٦٢٠.

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٤١ . يذكر كل أهل التاريخ هذه المطاعن واعتمدنا على اليعقوبي وعلى شرح النهج، ج ١ ، ص من ٢٢٧ - إلى ٢٤٣ .

الخليفة وليه وله أن يعفو؛ ولكن الحادثة جرت والحكم فيها صدر ولو حكماً تعليقياً من خليفة سابق عليه، وليس له نقض حكم عمر بمثل ذلك العذر الواهي، ولو جاز لكل خليفة أو سلطان أو قاضٍ نقض ما قرره ورسم سلفه لوقع الهرج والمرج في الدولة أي دولة، فليس لعثمان أن يعفو.

ثانياً : إيواؤه الحكم بن أبي العاص، وابنه مروان طريدا رسول الله ﷺ ؛ وقد امتنع الخليفتان أبو بكر وعمر عن إيوائهما، وقد اعتذر عثمان بأن الرسول كان قد وعده بإرجاع الحكم من المنفى على ما قيل.

والذي نظنه أن العاطفة القبلية هي التي أملت على عثمان إيواء الحكم، وقد كان إيواؤه لمروان شراً عليه كما عرفت فيما سبق.

ثالثاً : إيثاره أهل بيته بالأموال الكثيرة فمن ذلك دفعه لثلاثة نفر من قريش زوجهم بناته لكل واحد مائة ألف دينار، ومن هؤلاء الأصهار عبد الله بن خالد بن أسيد، ومروان بن الحكم[1] ، وروي أنه أعطى مروان خمس المال الذي ورد من افريقيا، وروى الطبري[2] ان الخمس إنما أعطاه لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وغير ذلك.

والاعتذار بأن عثمان أعطى ما أعطاه من ماله واهٍ جداً، فإنه لم تكن بعد قد تكدست ثروات تمكّن صاحبها من مثل هذا العطاء الضخم، ومهما قيل في ثراء عثمان فلا يظن ظان أن ثروته تحتمل مثل إعطاء الملايين ولو كان هذا العطاء من مثل ملوك الأمويين أو العباسيين حيث اعتادت الرعية مثل هذا الإسراف من

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) ج ٣، ص ٣٨٤ .

ملوكها، لما اهتم بعطاء عثمان لهؤلاء أحد؛ وأما عثمان فقد تولى الخلافة بعد رجل يمنع أهل بيته وسيط العيش، ويأكل ويلبس الخشن من المأكل واللباس توفيراً على بيت المال، ولئلا يتناول في صرفه حقاً لغيره، أعني ثاني الخلفاء عمر بن الخطاب والذي يرى نفسه أنه قد أسرف لما بلغ مصرفه في طريق الحج ذهاباً وإياباً خمسة عشر ديناراً. كان على عثمان ـ وإن كان يرى أن له حقاً في التصرف في بيت المال كيف يشاء ـ أن لا يقلب ظهر المجن لسيرة الشيخين المتقدمين المثلى في صرف ما يصلهما من أموال الخمس والزكوات والجزية. مع أن المال لجميع المسلمين يتساوى فيه القريب والبعيد، القاصي والداني والرئيس والمرؤوس.

رابعاً : حمى[1] الحمى عن المسلمين، والمراد بالحمى هنا الماء والكلأ حول المدينة، و لم يكن هذا الحمى بستاناً لأبي بكر، أو لعمر، أو لعثمان، أو لعلي، بل كان للمسلمين جميعاً، يتساوى فيه أي خليفة منهم مع أي رجل من المسلمين، لا يفضله بشيء. وقد اعتذر عنه بعض العثمانية بأنه حمى الحمى لإبل الصدقة؛ وعلى فرض صحة هذا الاعتذار فإنه لا يخرج عن كونه مأخذاً على عثمان، لأن إبل الصدقة لفئة خاصة من الناس؛ والماء والكلأ لجميع المسلمين .

الخامس : أعطى من مال الصدقة للمقاتلة وللمحاربين وفي ذلك لحرمان ممن جعلها الله لهم.

السادس : ضربه عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله حتى كسر بعض أضلاعه، بعد أن أزعجه من الكوفة إلى المدينة، وحرمه عطاءه، ولما أشرف

(١) وما حماه الربذة والشرف والبقيع شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

ابن مسعود على الموت مما أصابه من الضرب جاءه عثمان يعوده في بيته ويعتذر إليه، وحمل له عطاءه؛ فأبى[1] ابن مسعود قبول الاعتذار، كما أبى أخذ عطائه وقال له: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطنيه وأنا مستغن عنه وأوصى ابن مسعود أن لا يصلي عثمان على جنازته إذا مات؛ فتحمل عمار بن ياسر الوصية ودفن ابن مسعود لما مات بعد أن صلى عليه ولم يخبر عثمان بدفنه كما لم يطلب منه الصلاة عليه؛ وقد يعتذر عن عثمان، بأن للإمام أن يؤدب بعض رعاياه ـ على أنه لم يُعتذر عنه بهذا العذر أبداً ـ وهذا صحيح بالجملة، ولكن لا يؤدب من يريد صلاحه، وصلاح الرأي العام والمجتمع في نقده، وأن لا يتجاوز التأديب مقدار الذنب وخصوصاً والخلافة في وقته ملحوظة من زاويتها الدينية قبل أن تلحظ من زاويتها الدنيوية والمصلحية.

السابع : جمع الناس على قراءة زيد وإحراق بقية المصاحف؛ وقد اعتذر عنه بحمله الناس على قراءة واحدة بأنه أراد تحصين القرآن وضبطه؛ ولكن اختلاف الناس بكيفية قراءة آية أو كلمة من القرآن لا يوجب حمل الناس وقهرهم على قراءة واحدة، ولا يوجب تحريف القرآن والزيادة فيه ونقصه وخصوصاً مع ما روي من أن القرآن نزل على[2] سبعة أحرف، أي سبع قراءات وهي التي كانت متداولة ولا تزال في بعض البلاد الإسلامية وإذا كان الله ورسوله ﷺ قد وسعا على الناس في القرآن فكيف يضيق عليهم عثمان، ومن أعطاه هذا الحق.

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٣٦ .
(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

وأما حرق غير قرآن زيد من المصاحف فإنه وإن لم يكن استخفافاً بالدين كما اعتذر عن عثمان، إلا أن فيه من عدم الاحترام لكلام الله ما لا يخفى على أحد، وكان بإمكانه جمعها ودفنها في حفير من الأرض لا تراه العيون.

الثامن : ضربه لعمار بن ياسر حتى حدث فيه الفتق، وكان ذلك سبباً في مناصرة عمار للثائرين على عثمان، بل حتى كفر عمارُ عثمان وجادل غير واحد في تكفيره وحتى جادل الحسن بن علي (ع) وتخاصما إلى أمير المؤمنين؛ فقال علي (ع) ويحك يا عمار؛ أتكفر برب كان يؤمن به عثمان.

لم يكن ذنب عمار لعثمان يستوجب أن يرتكب منه ما ارتكب، مع فضل عمار وسابقته وإيمانه وشهادة النبي بحقه بأنه من أهل الجنة، وقوله له: إنه تقتله الفئة الباغية ونحن لا ننكر أن عمار كانت فيه شدة وحدّة، وربما كان في نصحه لخليفته جفاء وخشونة، ولكن ذلك كله لا يسوغ أن يرتكب منه ما ارتكب؛ والخليفة يعلم صدق نصح عمار، وإخلاصه، وسبب ضرب عثمان لعمار إنه كان في بيت[1] المال بالمدينة سقط فيه جوهر، فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه وانتقدوه وكلموه فيه بغلظة حتى أغضبوه؛ فخطبهم فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رُغِمت به أنوف أقوام؛ فقال له علي (ع) إذن تمنع من ذلك، ويحال بينك وبينه؛ وقال عمار:

أُشهِد الله أن أنفي أول راغم من ذلك؛ فقال عثمان: أعليَّ يا ابن ياسر تجترىء، خذوه. فأخذوه ودخل عثمان، فدعا به وضربه حتى أُغشي عليه، فحمل

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

إلى منزل أم المؤمنين أم سلمة وقد بقي مغشياً عليه حتى فاتته صلاة الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق قال: الحمد لله ليس هذا أول يوم أوذينا في الله تعالى.

وغضب لعمار حلفاؤه بنو مخزوم، وقابلوه بخشن القول ، وغضبت له أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة وأخرجت أولاهما شعراً من شعر رسول الله ، ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت: لسُرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه، ونعله لم تُبْلَ بعد؛ وقال عمار[1] : بعد ذلك كثير في الخليفة الثالث مما لا نوافقه عليه، كما لا يوافق أحد عثمان على فعله بعمار.

<u>التاسع</u> : نفي أبي ذر إلى الربذة، بعد أن نفاه إلى الشام ثم أزعجه من الشام إلى الحجاز على مركب صعب، وكان يسميه الشيخ الكذاب[2] مع أنه سمع الرسول ﷺ يقول فيه: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر.

وما ذنب أبي ذر، ولماذا يثور أبو ذر على عثمان، ولا يثور على الخليفتين قبله، أليس لأنه رأى بأم عينيه أن الحال لم تتغير كثيراً في عهد الخليفتين عنها في عهد الرسول ﷺ، حيث لا أثرة، لا تسلط، لا جبروت، بل الإسلام ومبادئه التي لا تفرق بين عثمان وبلال إلا في التقوى وذلك عند الله، وأما في دار الدنيا فالناس أمام الحق سواسية، وثار أبو ذر لأنه رأى أن عثمان آثر آل أبي العاص، وآل أبي معيط وجميع آل أمية وجعل المال دولة بين أغنيائهم؛ فلماذا لم يقتدِ عثمان بسيرة الشيخين وقد أعطى الله صفقة يمينه لما اختاره عبد الرحمان، وبايعه أن يسير بسيرة الشيخين، ولو فعل إذاً لكفى المسلمين كثيراً من الشرور التي

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

سببها ضعفه ثم قتله؛ وقد حرب عثمان ومعاوية قبل ذلك لما كان أبو ذر منفياً في الشام، أن يسكتا أبا ذر بالمال وهيهات لأبي ذر أن يسخط الله ربه لقاء دنيا فانية.

ومات أبو ذر وحيداً في الربذة ولكن مبدأه الذي دعا إليه محمد ﷺ وحاطه علي والصحابة حي إلى الأبد.

وقد أراد بعض المتأخرين أن يعتذروا لعثمان بأن أبا ذر هو اختار الربذة.

وهي دعوى يعوزها المنطق والدليل، فإن رجلاً كأبي ذر رأى الحياة كلها في جنب رسول الله ﷺ وبين أصحابه فهل يعقل أن يختار عليها أرضاً لا ساكن فيها إلا البوم وإلا الغربان والأفاعي.

حدَّث أبو الأسود الدؤلي قال[1] : كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه؛ فنزلتُ الربذة، فقلت: ألا تخبرني، أخرجت من المدينة طائعاً أم مكرهاً؟ فقال: كنت في ثغر من ثغور المسلمين، أغني عنهم، فأُخرجتُ إلى مدينة الرسول ﷺ ، فقلت: أصحابي، ودار هجرتي، فأخرجت منها إلى ما ترى.

وكما نفى عثمان أبا ذر نفى أيضاً عبد الرحمان[2] بن حنبل وجُعل هذا طعنا عليه على حدة مع أنه عين المأخذ السابق لا يختلف عنه إلا بمكانة أبي ذر السابقة عند النبي ﷺ وفي قلوب المسلمين؛ وليس لعبد الرحمان هذه المكانة ولا جزء منها.

العاشر : توليته لأقربائه وتسليمهم الولايات والأعمال الكبيرة، بل حصر المناصب الرفيعة بهم، كمعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر، وسعيد بن خالد بن العاص على الكوفة، وعبد الله بن عامر

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٤١ .
(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٥ .

بن كرو على البصرة، حتى أصبحت البلاد كأنها بستان أموي، وليس فيهم من هو مرضي الدين، ولا مأمون على ما في يده من أمانة الأمة[1].

الحادي عشر: لماذا لم يدافع الصحابة ـ المهاجرون والأنصار ـ عن عثمان وفيهم العدة والعدد، وهم الذين، آووا، ونصروا الرسول ﷺ، وأرغموا آناف الشرك حتى دانت الجزيرة العربية كلها بالإسلام، أعن قلة عدد؟ أو عن ضعف؟ أم عن كثرة العدو وعلى أكثر الروايات لا يتجاوز الثلاثة آلاف ثائر، ولماذا لم يدافع عنه المهاجرون، وأكثرهم من قريش وأين سعد بن أبي وقاص، وأين عبد الله بن عمر، وأين عائشة، وطلحة وإن عجز هؤلاء عن الدفاع بأسيافهم، افيعجزون عن الدفاع عنه بألسنتهم، بوعظهم للثائرين وأين طلحة على الأخص ولماذا لم يرد البصريين عن عثمان، وكانوا أطوع له من خاتم في خنصره؛ أم ترى أن الصحابة كانوا يرون عثمان جديراً بأن يقتل لما خالف به صاحبيه والرسول قبلهما؛ أسئلة حائرة تنتظر جواباً شافياً، ولا جواب شاف وكأن الأرض قد خلت، فليس لعثمان من ناصر إلا علي، فتارة ينصره بجاهه فيرد عنه المصريين وأخرى بيده فيبعث ولديه سبطي الرسول ﷺ يدافعان عنه بأسيافهما، وثالثة يدخل عليه الماء لما منع منه، ورابعة يعظ القوم الثائرين ويخبرهم أن فعلهم هذا لا يشبهه شيء.

ولقد أجاب ابن قتيبة في كتابه عن بعض تلك الأسئلة بكتاب كان قد وُجه[1] من المهاجرين في المدينة إلى المسلمين في الأقطار، وهذا هو الكتاب بنصه:

---

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، والإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، وشرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

من المهاجرين الأولين، وبقية الشورى ، إلى من بمصر من الصحابة والتابعين، أما بعد! أن تعالوا إلينا، وتداركوا خلافة رسول الله ﷺ، قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدّل، وسنة رسول الله قد غيِّرت، وأحكام الخليفتين قد بدِّلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين لهم بإحسان إلا أقبل إلينا واجداً الحق لنا، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح، الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقكم عليه الخلفاء، غُلبنا على حقنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة، ورحمة، فأصبحت ملكاً عضوضاً، من غلب على شيء أكله.

وغير هذا الكتاب كتب[2] أخرى ذهبت إلى الكوفة وإلى البصرة وغيرهما من النواحي.

وهل كان أهل المدينة راضين عن قتله فسكتوا عن نصرته وحتى مع وجود مثل هذه الكتب التي تعد بمنزلة الوثائق، وحتى مع صحة تلك المطاعن كلها المتقدمة يبقى الباحث في ريب وتشكك وتساؤل عن المضرمين لأتون هذه الثورة وإذا عُرفوا عُرفت أهدافهم وغاياتهم.

وسؤال حائر آخر يتردد ويبحث عن جواب ولات حين جواب: لماذا لم ينصر معاوية عثمان حين كان النصر لعثمان، وآخر نصر عثمان حين كان النصر

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) سيأتي ذكر هذه الكتب في ذكر ثورة طلحة والزبير.

لمعاوية، ولماذا أمر معاوية جيشه بألا يدخل المدينة ويبقى متربصاً بعثمان على مراحل[1] من المدينة.

وأما طلحة، وأما الزبير، وأما أم المؤمنين عائشة، فكان موقفهم من عثمان واضحاً فهم كانوا أشد على عثمان ممن يحاول قتله؛ ولقد حفظ لنا الشعر العربي كثيراً من تلك الوقائع، فمن ذلك قول ابن أم الكلاب[2] لأم المؤمنين، لما جاءت البصرة تطلب بالثأر بدم عثمان:

منك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرتِ بقتل الإمام	وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله	وقاتله عندنا من أمر

في أبياتٍ، وأبياتٌ[3] أخر لغلام جهني بصري وقد سأل محمد بن طلحة عن دم عثمان عند من؟ وذلك يوم الجمل فقال محمد: نعم دم عثمان ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج - يعني عائشة، وثلث على صاحب الجمل الأحمر - يعني طلحة ، وثلث على علي ابن أبي طالب.

ولا شك في أن ابن طلحة قد داهن في اتهام عليٍّ والشراكة في دم عثمان وهذا ما أحس به السائل الجهني فضحك من جوابه، وقال: ما أراني إلا على ضلال؛ ثم ترك معسكر القوم ولحق بعلي. وقال في ذلك شعراً يذكر السؤال

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ .
(٣) الطبري ج ٣ ، ص ٤٨٢ .

والجـواب ويـبرز الـرأي المعـروف في ذلـك الوقـت ومـا بعـده في دم عثمـان وعند من:

سألت[1] ابن طلحة عن هالك	بجوف المدينة لم يقبر
فقال : ثلاثة رهط هُمُ	أماتوا ابن عفان واستعبر
فثلث على تلك في خدرها	وثلث على راكب الأحمر
وثلث علي ابن أبي طالب	ونحن بدويّه قَرقر
فقلت صدقت على الأولين	وأخطأت في الثالث الأزهر

وهل صحيح أن عثمان لم يرض من أحد بأن يحمل السلاح للدفاع عنه، وكيف يتوافق هذا مع ما ذكره المؤرخون من استنجاده بالأقطار وكتابته إلى عماله بأن ينجدوه بالجيوش، وهناك سببان آخران مهمان جداً، ربما كانا هما معاً الحافز الأقوى، والمباشر في إشعال الثورة على الخليفة الثالث، ونشوبها لما لأحدهما من المساس في حياة البشر، ولما لثانيهما من طبيعة متأصلة في البداوة، لا أقل في حياة عرب الجاهلية والصدر الإسلامي.

والأول منهما هو التضخم المالي عند فئة من الناس خاصة غالبها من قريش مما جعل المسلمين طبقتين لا التقاء بينهما، طبقة بيدها كل الثروة، وطبقة لا تجد كسرة من شعير تسد بها رمق حياتها.

(١) الطبري ج ٣ ، ص ٤٨٢ .

وطبيعي جداً إذا وجدت الطبقية بين شعب، وُجِدَ معها التحاسد والتباغض، ووُجدت الأنانية والتجبر، وهذا أو ذاك يؤديان إلى التنازع قطعاً، فإن الطبقة الفقيرة تنظر إلى الطبقة الغنية على أنها قد سلبتها لقمة العيش فهي تسعى جاهدة لاسترداد هذا الحق، وبطبيعة الثروة التي صارت بأيدي الطبقة الثانية فإنها تجعلها تنظر إلى الطبقة الأخرى من عل وكأنها ذر، وكأنها خنافس؛ وفي نفس الوقت تحتاج إلى الدفاع عن اسباب بقائها ببقاء ثرواتها، وباعتبار أنها الطبقة الممتازة، ذات الحقوق الممتازة.

ولنذكر الآن قائمة ببعض الثروات التي تكدست عند الطبقة الغنية وغالبها من قريش.

خلف عثمان لما قتل مليون[1] درهم ومائة وخمسين ألف دينار هذا عدا الضياع والقصور والخيول بما يزيد ثمنه عن مائة ألف دينار؛ وخلف الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، والف فرس وألف عبد، وألف أمة، وغير ذلك من الضياع والدور في مصر، والكوفة والاسكندرية ويقول المسعودي إنها معروفة إلى وقته.

وكانت غلة طلحة من أملاكه بالعراق ألف دينار في اليوم الواحد، هذا غير غلته من أملاكه في غير العراق، وعدا القصور، والدور وكان على مربط عبد الرحمان بن عوف[2] مائة فرس، وألف بعير، وعشرة آلاف رأس من الغنم، وبلغ رُبعُ ثمن ماله أربعة وثمانين ألف درهم هذا عدا الضياع، والدور، وغيرها.

وخلف زيد بن ثابت من الذهب، والفضة ما يكسر بالفؤوس، وخلف من

---

(١) مروج الذهب، ج ١، ص ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) مروج الذهب ج ١، ص ٤٣٤.

الضياع، وغيرها من الأموال ما قيمته مائة ألف دينار وخلف يعلى بن منية أو أمية نصف مليون دينار، ومائة ألف دينار ديوناً على الناس وضياعاً وغير ذلك.

وأين هذه الثروات مما كان في عهد الخليفة(١) عمر بن الخطاب الذي رأى نفسه أنه قد أسرف لأنه صرف في ذهابه إلى الحج وإيابه ستة عشر ديناراً.

وعندما ولى عمار بن ياسر على ثغر الكوفة، وعثمان بن حنيف على خراجها، وعبد الله بن مسعود على بيت مالها، جعل لهم شاةً في اليوم جعل نصفها وسواقطها لعمار، وجعل للآخرين النصف الآخر.

والسبب الثاني: هو أن للعربي، وخاصة في قرب عهده بالجاهلية كانت له طبيعته الخاصة به، كما لكل شعب وأمة من الناس طبيعتها وميزاتها التي تمتاز بها عن غيرها، وكانت طبيعة العربي الغزو، لأنه نشأ في بلاد أكثرها صحار قاحلة،فكان يغزو ليجد لقمة العيش ثم صار ذلك طبيعة متأصلة فيه، فإذا لم يجد من يغزوه غزا أخاه وابن عمه كما يقول الشاعر القطامي(٢) :

ونكر على بكر أخانا إذا لم نجد إلا أخانا

ولقد شُغل العرب في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بحرب أعظم دولتين في زمانهما الفرس والروم، يدفعهم إلى ذلك أمور منها طبيعة الغزو والنصر المتأصلة في نفوسهم، وبعض نعيم العيش الذي استمرأوه، والجهاد الديني، فكان العربي في زمن الخليفتين مشغولاً بما هو في طبيعته، وما هو عنده بمنزلة الماء والطعام، فلم يفكر في خلافة ولمن صارت، ولمن تكون أو تصير.

---

(١) نفس المصدر .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٢٨ .

وكذلك كان الحال في السنتين الأولين من خلافة الخليفة الثالث عثمان حيث اشتغل العرب بفتح بلاد الخزر، والترك، وجزر البحر الأبيض، وكثير من شواطئه.

ولكن في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان توقف الغزو، ففقد العربي ما هو عنده بمنزلة الماء والطعام، وغزا أخاه إذ لم يجد إلا أخاه كما يقول القطامي، فكانت ثورتهم تعبيراً عما في نفوسهم من حب الغزو، وإنهم إذا لم يجدوا عدواً يغزونه، غزوا أنفسهم واشتغلوا بتقتيل بعضهم؛ ولقد طلب معاوية إلى عثمان في بعض اجتماعاته به وذلك في ابتداء حركة الثوار، طلب منه أن يشغلهم بالغزو قائلاً له[1] : فرقهم عنك، فلا يجتمع منهم اثنان[2] في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث والندب، حتى يكون دبر بعير أحدهم أهمّ عليه من صلاته.

وقد عمل بهذه السياسة بعد سنين الحجاج بن يوسف الثقفي لما التمعت بروق الثورات عليه في العراق فأخرجهم إلى حرب الخوارج مع المهلب، وهددهم بهدر دم من وُجِدَ منهم بعد ثلاثة أيام؛ وهذان السببان معاً هما العلة المباشرة لتلك الثورة.

ومع كثرة الأسباب التي ذكرها المؤرخون، بل كادوا يجمعون عليها، وان اعتذر بعضهم عن عثمان، وأوَّل فيها، وفسر، إلا أنا لا نراها كافية للثورة، على الخليفة وقتله.

وأما مجريات الحوادث التي جرت يومذاك، فإننا لا نقدم احتمالا فيها بل هو

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣١ .

(٢) ويقصد معاوية بذلك الرؤساء.

رأي تؤيده النصوص بقيام حزبين يعملان بالخفاء للقضاء على الخليفة والوصول إلى كرسي الحكم، أما أحد الحزبين فمعروف عند كل الناس قديماً وحديثاً وهو المؤلف من طلحة والزبير، وجماعتهما وعلى رأس الجميع أم المؤمنين عائشة، وقد عرفت بعض أقوالها في عثمان، وتشجيعها على الثورة عليه. وكذلك كان طلحة، فهو الذي أشار على المصريين بقطع الماء عن عثمان[1] لتضعف مقاومته، ومقاومة من معه، واستولى على بيت المال فمنع عثمان من أن يعطي[2] الناس أرزاقهم ليزيد في إشعال النار وتأججها على عثمان وليُكثر طلحة حوله الناس؛ إلى أن أرسل عثمان يشكو طلحة إلى علي (ع) ؛ فجاء علي (ع) ولاقى من طلحة غليظ القول و لم يُسلمه هذا مفاتيح بيت المال؛ فكسر علي الباب وفرق المال على الناس.

وقد أبرز هذا الحزب مكنون صدره بعد بيعة علي، وكانت واقعة الجمل.

وهناك بحسب ظننا حزب آخر كان يعمل بالخفاء للوصول إلى السلطة عن طريق قتل عثمان، وذلك هو حزب الأمويين وعلى رأسهم معاوية ومروان، فهما أكثر الفريقين استفادة من قتل الخليفة عثمان، وأكثر تعقلاً واتزاناً في عملهما للوصول إلى بغيتهما؛ وقد جمعت بين الاثنين أكثر من جامعة، فهما يريان بأم أعينهما أن عثمان هامة يومه أو غده. وكلاهما مستعد لبذل الغالي والنفيس في إبقاء الملك في بيتهما - ويعرف كلٌّ منهما أن عثمان إذا مات موتاً طبيعياً، لا يصل أحدهما للخلافة ولو بعد حين من الدهر؛ وكيف يكون على المسلمين خليفة هو

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٤ . وشرح النهج، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٥.

طليق ابن طليق، أو كيف يولي المسلمون خلافتهم لطريد رسول الله وابن طريده، فكان لا بد لهما من حجة، ولا بد لهما من وسيلة، والحجة والوسيلة عند كليهما كيفما كانت تبررها الغاية؛ فإذاً فليقتل عثمان، وليعملا على قتله، وليزيدا النار اشتعالا، ولا يتركان فرصة للصلح بين الخليفة والرعية، يوجه أحدهما ـ البعيد ـ الخطط؛ وينفذها القريب الساكن مع عثمان داره، حتى يجعلا بعد ذلك الطلب بدمه وأخذ ثأره سُلماً للسلطة والتحكم.

نرى معاوية يمنع عن عثمان نصره حين كان يمكنه نصره؛ ويأمر جيشه بالتربص على مراحل من المدينة، مع أن[1] الجيش لو تابع سيره لوصل، ولكان كفيلا بحفظ حياة الخليفة على أقل التقادير.

وظننا أن مروان هو المنفذ للخطة المحكمة إذ لم يكن يدع بارقة أمل من صلح بين الثوار وخليفتهم إلا وأطفأها، فتارة يكتب عن لسان عثمان إلى والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بقتل الوالي الجديد[2] محمد بن أبي بكر وقتل وصلب جماعة ممن هم كانوا رؤساء الثورة، بل أكثر من ذلك فإنه يأمر الغلام الذي سار بالكتاب إلى والي مصر أن يتراءى للقوم ليقبضوا عليه ويقرأوا الكتاب، وبذلك يفسد ما أصلحه بعض الصحابة؛ وثانية يتدخل مروان بين عثمان ونصحائه من كبار الصحابة[3] ؛ وثالثه[4] يصعد المنبر ويخطب الناس والمسلمين ويشتمهم

---

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٥.

(٣) شرح النهج، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) شرح النهج، ج ١، ص ١٦٤ .

بعد أن خطبهم عثمان ووعدهم بأن يسير بسيرة من تقدمه من الخلفاء الراشدين، وينزع عما كان عليه ويستبدل عماله بالأصلح وبمن يرضون دينه وأمانته؛ ووعدهم إلى يومه القابل فيأتي من الأمور ما أحبوا، وما فيه صلاح الأمة.

وفي اليوم الموعود ما راع الناس إلا صعود مروان إلى محل عال وشتمه الناس وقوله لهم: ما شأنكم قد اجتمعتم، كأنكم جئتم لنهب ، شاهت الوجوه، أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اغربوا عنا، والله! إن رمتمونا لنمرن عليكم ما حلا، ولنحلن بكم ما لا يسركم، ولا تحمدوا فيه غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا، وقد دخل علي (ع) فلام عثمان، ولامت نائلة بنت الفراقصة زوجها عثمان وأخبرته أن مثل عمل مروان يؤدي إلى قتله.

هذه عدا عشرات من مواقف مروان في إفساد قلوب الرعية على خليفتهم، فكلما أصلح المصلحون الأمر ورتقوا الفتوق جاء مروان فأفسد، وخرق ومزق لخطة مدبرة، وسياسة مقررة، وأمر دبر بليل، والله بالغ أمره.



الفصل الثالث

نتائج الثورة

لم تهدف هذه الثورة إلى تغيير مبادىء، وإقامة نظم جديدة، غير النظم التي كان يسير عليها الخليفة الذي ثاروا على حكمه؛ كما لم يكن هدف الذين قاموا بالثورة بالذات، من المصريين، وإخوانهم الكوفيين، والبصريين هو الاستيلاء على السلطة، وإن كان هذا هو هدف بعض محركي الثورة من أهل المدينة.

و لم يكن الذي هدفت إليه الثورة، وقصدت إلى تغييره، هو نفسه الخليفة بالذات أيضاً؛ وإنما الذي قامت الثورة لتغييره هو الدكتاتورية الأموية، التي جعلت البلاد الإسلامية بستاناً للعائلة الأموية تلتذ بأطايبه، فإن بقي شيء وهو نفاية الإنتاج فهو للشعب، وهذا ما صرح به سعيد بن خالد بن العاص الأموي والي الكوفة وقال: إن السواد[1] بستان قريش، ولبني أمية؛ ونرى مثل ذلك في خطبة مروان في بعض أيام الدار[2] حين يخاطب الجموع المنتظرة أن ينجز لهم خليفتهم وعده

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٢) شرح النهج ، ج ١ ، ص ١٦٤٠.

بتحقيق العدالة وإذا بمروان يقول لهم: " أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا "؛ ومعنى هذا أنه ذهبت معالم خلافة النبوة والرحمة وصارت ملكاً حقاً للأمويين.

فالثورة إذاً كانت تطلب القضاء على الدكتاتورية الأموية المتجسدة بمعاوية وعبد الله بن أبي سرح وسعيد بن خالد بن العاص، وبمروان الذي يعمل خلف الستائر، وتطلب الثورة ان يكون الحاكم حقاً وصدقاً هو عثمان، الصحابي السابق، عثمان المسلم، لا عثمان الأموي، وتطلب الثورة إعادة سيرة الشيخين التي أخذ الخليفة الثالث على نفسه عابا بعد عبد الرحمن بن عوف[1]، السير على هداها، والعمل بها.

ونرى هذا الطلب صريحاً في كتاب الصحابة الذين أثاروا الناس على عثمان؛ ففي بعض كتبهم للأمصار يقولون: (وسُنة رسول الله قد غُيرت، وأحكام الخليفتين قد بُدِّلت) [2].

فإذا ضممنا هذه الأمثلة إلى المطاعن التي طُعِنَ بها على الخليفة، وعرفنا رجوع المصريين عن المدينة كما وعدهم الخليفة بأن ينزع عما لا يرضون، عرفنا أن الثائرين - بقطع النظر عن محركيهم من شيوخ الصحابة - لم يكن هدفهم حتى تغيير عثمان في بادىء الأمر.

بل هدفهم كما قلنا القضاء على الدكتاتورية، وعلى الأثرة بالمال، وتوزيعه بالسواء على المسلمين حيث لا سيد ولا مسود، وهدفهم العمل بسيرة الشيخين

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٣٢ .

فإن عمر بن الخطاب لم يول أحداً من أقربائه، و لم يذكر عنه أنه اختص نفسه أو أحداً من أهل بيته، بمال أو متاع دون بقية المسلمين.

وأخيراً فإن الثائرين إنما أرادوا من وراء كل ما ذكرنا إقامة عدالة اجتماعية، عزت بل تفتت وذابت في ظل السيطرة الأموية على خلافة عثمان.

وهل تحقق للثورة هدفها وغايتها نعم ولا.

نعم بخلافة علي القصيرة الأمد التي لم تمتد إلى جميع الأقطار الإسلامية، والتي شُغلت بإسكات الفتن، والقضاء على ثورات أصحاب المطامح، طيلة مدة الخلافة، ومع ذلك فقد استطاع الرأس فيها أن يحقق العدالة ما أمكنه إلى التحقيق سبيل، وأن يرجع بالناس إلى مثل عهد الرسول ﷺ ، وما إن مات علي حتى دفنت العدالة معه في قبره كما يقول الأستاذ علي الوردي[1]؛ وإذا تساءل المرء عن أسباب عدم تحقيق الغايات المطلوبة للثورة من العدالة الاجتماعية، فإنه يجد الجواب في أسلوب تنظيم الثورة أولاً؛ وفي عدم صحة نوايا زعمائها، أو الأكثر منهم ثانياً.

وأما النتائج التي ترتبت على هذه الثورة سواء كانت القريبة، أو البعيدة المدى، فإنها كانت من أسوأ النتائج التي تمخضت عنها ثورة، وهي متعددة منها:

أولاً: فسحت المجال لطلحة والزبير بالمطالبة بالخلافة، وهما يعلمان كما يعلم كل إنسان في زمنهما إلى زمننا هذا إنه لولا زعمهما المطالبة بدم عثمان وأنهما تابا بعد أن ألّبا الناس عليه؛ يعلمان أنه لولا هذا لا يوجد إنسان مهما كان، ومن أي قطر يعدلهما بعلي، وكان من نتيجة هذا الزعم وقعة الجمل التي قُتِلَ فيها من

(١) في آخر بعض فصول كتابه وعّاظ السلاطين.

قتل من رجال الإسلام وهم عدد وفير، وقد ورَّثت هذه المعركة عداءً بين عاصمتي الإسلام في العراق البصرة والكوفة لم تطفئه الأيام حتى انمحت البلدتان القديمتان، وقامت على أنقاضهما بلدتان أخريان لا تشابهان السابقتين إلا بالإسم.

وثانياً : فسحت المجال لمثل معاوية أن يطالب بالخلافة باعتبار أنه ولي دم عثمان؛ ولولا قتل عثمان لما أمكن لمعاوية أن يشرأب بعنقه إلى الخلافة وهو يعلم أن المسلمين لا يرضون أن يتولى خلافتهم طليق ابن طليق تألفه رسول الله ﷺ على الإسلام كما تألف أباه.

وقام هذا وأولئك يضربون الناس بأسيافهم، في الجمل وصفين يطالبون علياً بدم عثمان؛ وكأن علياً هو الذي قتل عثمان، وكان علياً هو الذي منع الماء عن عثمان، وكأن علياً هو الذي احتجز بيت المال فمنع المسلمين أرزاقهم ليشدد نقمتهم على عثمان، وكأن علياً هو الذي أمر جيشه من أهل الشام بالتربص على مراحل من المدينة و لم يدعه يدخلها لنصرة عثمان؛ وكأن الجماعة هم الذين نصروا عثمان، وكأنهم هم الذين أدخلوا له الماء عنوة لما منع منه، وكأنهم هم الذين ردوا المصريين، وكأنهم هم الذين أرسلوا أولادهم بأسيافهم يحافظون على عثمان، ويدفعون القوم عنه.

وطالب القوم من الفريقين علياً بقتلة عثمان، وكأنهم أولياء دمه، وأين كان أولاد عثمان، وهم بالغون راشدون، لماذا لم يطالبوا بدم ابيهم بأنفسهم.

وممن يطلب دم عثمان، فإن كان ممن تولى قتله وهما التجيبي وحمران بن سودان فقد قتلاساعة قتل عثمان، وإن كانوا يطالبون بدمه ممن ألّب على عثمان

ممن كان مع علي كالأشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر، فقد عرفت أن الأشتر اعتزل بأهل الكوفة قبل قتل عثمان بأيام، كما اعتزل حكيم بن جبلة العبدي بأهل البصرة.

وأما عمار، وأما محمد بن أبي بكر، فهما ممن ألب على عثمان حقاً، ولكن ليس ذنبهما في ذلك أكبر من ذنب سواهما من زعماء حرب البصرة ممن حارب علياً، ممن كان أثره أكثر، وهو مسموع الكلمة والرأي لسابقته وقرشيته.

وإذا كان معاوية يطلب دم عثمان من الأشتر، وعمار، ومحمد بن أبي بكر لأنهم البوا على الخليفة، فلماذا لم يطلب دم الخليفة عثمان من عمرو بن العاص وهل كان أحدٌ من المسلمين أشد تأليباً على عثمان من ابن العاص؛ وقد تقدمت بعض كلمات عمرو بن العاص التي واجه بها عثمان يحرض الناس عليه حين يقول له: (لقد ركبت بنا نهابير، وركبناها معك، فتب إلى الله نتب)؛ و لم يبلغ معاوية كلمة عمرو بن العاص لما بلغه قتل عثمان، وعمرو في فلسطين فقال: (أنا أبو عبد الله؟ إذا نكأت قرحة أدميتها)؛ هل من تحريض أشد من كلمته الأولى، وهل من إقرار بالمشاركة بالقتل أعظم من هذا الإقرار.

ثالثاً : ومن نتائج هذه الثورة ـ غير المقصودة ـ الانشقاق الهائل بين المسلمين إلى عثمانيين وعلويين[1] ، وهذه نتيجة غير طبيعية لمجريات حوادث الثورة، لأن النتيجة بحسب مجريات الحوادث ينبغي أن يكون الانشقاق علوياً وعثمانياً إلى جهة ، والجهة الثانية تجمع الفئات المناوئة التي حرضت وشاركت

(١) لا عثمانيين وشيعة فإن الشيعة برزوا بهذا الاسم في زمن الرسول ﷺ .

ورضيت عن قتل عثمان ـ من زعماء البصرة يوم الجمل ـ وزعماء الشام يوم صفين؛ انقسم العالم الإسلامي كما قلنا وامتدت جذور الانقسام بقصد من الحكام والخلفاء والسلاطين من أمويين وعباسيين وأيوبيين وأتراك وغيرهم لأن لهم مصلحة في هذا التفرق.

ويا ليت الانقسام كان فكرياً أو قولياً إذاً لهان الأمر، ولكنه تعدى إلى تكفير الشيعة من فئات كثيرة من المسلمين وإباحة أعراضهم ودمائهم، وأموالهم كأنهم هم قتلوا الخليفة الثالث أو حرضوا عليه، وحتى يومنا هذا لا يزال العالم الإسلامي ينوء بحمل هذا الانقسام؛ وقلما كانت لثورة من الثورات مثل جذور هذه النتائج المؤلمة.

الباب الثاني

■ ثورة أصحاب الجمل

الفصل الأول

الثورة في طورها الدموي

بلغ أم المؤمنين قَتلُ عثمان وهي في طريق رجوعها من حج بيت الله الحرام فقالت[١] : بُعداً وسحقاً؛ وبلغها أن الناس بايعوا ابن عمها طلحة بن عبد الله التيمي بالخلافة ؛ فهتفت به استبشاراً؛ ايهاً ذا الاصبع.

ثم بلغها الخبر الأكيد، بأن الناس قد اختاروا لخلافتهم علياً بن أبي طالب (ع) فقالت: ما كنت[٢] أبالي أن تقع هذه على هذه؛ ثم رجعت إلى مكة تنادي: إن عثمان قتل مظلوماً.

وكان هذا أول بذرة من بذور الثورة، التي أدت إلى حرب الجمل وإلى أولى الثورات على أمير المؤمنين علي (ع) .

واستأذن طلحة، والزبير علياً للعمرة[٣]، وقد بلغه عنهما هنات، فقال لهما ما العمرة تريدان[٣]، وإنما تريدان الغدرة، ونكث البيعة؛ فجددا له البيعة

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٦ .
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الطبري، ج ٣، ص ٢٦٥، اليعقوبي ، ج ٢، ص ١٥٦، شرح النهج، ج ١ ، ص ٧٧ .

وأعطياه صفقة أيمانهما ألا يغدرا ثم خرجا قاصدين مكة؛ فقال علي (ع) : لقد أتياني[1] بوجهي فاجرين، ورجعا ناكثين، والله لا يلقياني بعدها إلا في كتيبة خشناء، يقتلان فيها أنفسهما، فبُعداً لهما وسحقاً؛ وكان الرجلان قد أتيا علياً قبل خروجهما من المدينة إلى مكة، بزعم العمرة وقالا له: هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ فقال[2] : نعم! على السمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان؛ فقالا: لا ولكنا بايعناك على أننا شريكاك في الأمر؛ فقال علي: لا! ولكنكما شريكان في القول، والاستقامة، والعون على العجز، والأود.

ويقول ابن قتيبة[3] : وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق، وكان طلحة لا يشك في ولاية اليمن.

فلما عرفا أن علياً غير موليهما شيئاً أظهرا الشكاة، وقام الزبير يصارح الناس بأنهما قاما بأمر عثمان، وأثارا الناس عليه حتى يخلو دست الخلافة.

وقد أشار ابن عباس على علي بأن[4] يولي الزبير البصرة، ويولي طلحة الكوفة فأجابه علي (ع) أنه لولا ما ظهر من حرصهما على الولاية، لكان لي فيها رأي؛ وقال لابن عباس: إن العراقيين فيهم الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس، يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره، ونفعه، لاستعملت معاوية على الشام.

---

(١) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٥٢ .

وقال ابـن ابي الحديـد: إن معاويـة لما بلغه خلاف طلحة والزبـير على علي (ع)، كتب[1] إليهما يمنيهمـا الخلافـة بـأن يجعلهـا للزبـير، ويجعـل طلحـة ولي العهد بعده ويبـايع لهمـا بالشـام إن أظهـرا الطلـب بـدم عثمـان، وهـو عنـده المـال والرجال، وهو مسموع الكلمة، مطاع في جنده.

وكانت هذه البذرة الثانية من بذور ثورة يوم الجمل؛ وخـرج الرجـلان إلى مكة يعلنان أن عثمان قتل مظلوماً، ويدّعيان الطلب بدمه، والثأر له.

وكما رأيت دبت الحيـاة في إحـدى البذرتـين للثـورة إحداهمـا في أواسـط الطريق بين مكـة والمدينـة، والأخـرى في قلـب المدينـة عاصمـة الرسـول وعاصمـة الإسلام، ونمت البذرتان في مكـة، واشـتدت أصولهمـا وفروعهمـا في البصـرة كمـا ستعرف، وفي البصرة قضي على الثورة، وفيها دفنت، مع الرتل الأكبر من زعمائهـا وقادتها ومحركيها.

وفي مكة التقت عائشة بطلحة والزبير، وانضوى إليهم كـل أمـوي، وكـل غاضب على خلافة الإمام (ع) خائف منها لأنها تحاسبه على ثروته غـير المشـروعة تحت سيطرة قانون من أين لك هذا[2]، وفر مـروان مـن المدينـة[3] إلى مكـة يبغـي الإسلام شراً، كما ابتغاه أبوه يوم الدار.

وفي مـكـة ائتمر القوم أي جهـة يقصدون، وهمّـوا بقصـد الشام[4]، ونصحهم يعلى بن منية بأن الشام فيها معـاوية، وقد حاطها، وهو سيدها وربما أراد

(١) شرح بن أبي الحديد، ج ١، ص ٧٧.
(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٤. شرح النهج، ج ١، ص ٩٠.
(٣) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٥٤.
(٤) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٦١.

جعل الخلافة شورى عنده وتحت سلطانه فتفلت منهما الخلافة، أو يفلتان منها، ورأى الرجلان انهما في الشام يكونان تابعين، لا متبوعين.

ثم اتفق رأيهم جميعاً على التوجه إلى البصرة بإشارة يعلى بن منية والي اليمن لعثمان وأقرضهما الرجل المال الوفير وحمل لهما الحملان وكذلك أشار عليهما عبد الله بن عامر لأن له فيها صنائع وعملاء كما قال.

وربما كان اختيارهما للبصرة، لأن أهل البصرة أول ما هتفوا بطلحة، ولأن لابن عامر بعضاً من صنائع وعملاء كما زعم.

ولماذا لم يقصدا الكوفة، وللزبير فيها مقام، وأهل الكوفة أول من هتف باسم الزبير للخلافة يوم الدار، والكوفة قبة الإسلام وفيها من الرجال والأمراء ورؤساء القبائل ما ليس في غيرها من المدن الإسلامية، ذلك ربما لأن مركز الزبير كان قد تضعضع، وربما لأن الذين هتفوا باسمه من أهل الكوفة يوم الدار لم يكونوا من العدد والمكانة ما يمثلون به بلدهم.

وجرّب الشيخان طلحة والزبير أن يستميلا عبد الله بن عمر[1] ، بل ربما أغرياه بالخلافة، ولكنهما وجداه صخرة يخشن مسها، ورجلاً لا يُخدَع عن عقله ودينه، فآبا منه بالفشل والخيبة.

ولما أزمع القوم على الخروج إلى البصرة ، أتى سعيد بن العاص الأموي عائشة فقال لها[2] : أين تريدين يا أم المؤمنين؟ قالت البصرة، قال: وما تصنعين في

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

البصرة قالت: أطلب بدم عثمان؛ فقال لها: فهؤلاء قتلة عثمان معك؛ ثم إن سعيداً بن العاص أتى ابن عمه مروان بن الحكم وقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟ قال البصرة، قال: وما تصنع فيها؟ قال أطلب قتلة عثمان، فقال: هؤلاء قتلة عثمان معك إن هذين الرجلين - يعني طلحة والزبير - قتلا عثمان، وهما يريدان الأمر لأنفسهما، فلما غُلبا عليه قالا: نغسل الدم بالدم، والحوبة بالتوبة.

وقال المغيرة بن شعبة[1] يخاطب الخارجين مع أم المؤمنين، ومع طلحة والزبير : أيها الناس إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم، فارجعوا بها خيراً لكم، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على علي شيئاً فبينوا ما نقمتم عليه، أنشدكم الله، أفتنتان في عام واحد؟

واعتزل هذان الرجلان، فلحق أولهما باليمن، وثانيهما بالطائف، وخرج القوم بأم المؤمنين حتى بلغوا ماء حوأب[2] - فنبحتهم كلابه، وهمت أم المؤمنين حينئذ بالرجوع وقد تذكرت حديثاً حدثه رسول الله ﷺ لنسائه عن إحداهن تنبحها كلاب حوأب ثم قال ﷺ لعائشة: أخاف أن تكونيها يا حميراء[3] ، ولكن القوم حلفوا لها بل لفقوا[4] لها شهادة من أعراب البادية يحلفون بالله أن ليست هذه أرض حوأب بل إن أرض حوأب قد مروا عليها قبل ليلتهم تلك وابتدأهم بهذه الشهادة عبد الله بن الزبير؛ وقيل يومئذ: إن هذه أول شهادة زور في الإسلام.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٢) شرح النهج، ج ٢ ، ص ٤٩٧. والإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٣) الحميراء : البيضاء فإن العرب كانوا يسمون الأبيض أحمر والأسود أخضر.

(٤) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٦٤ .

وأشرف القوم على البصرة عاصمة العراق الثانية بعد عاصمته الأولى الكوفة يومئذٍ وفيها عامل علي (ع) عثمان بن حنيف، وكاتبوا أهل البصرة فأرسل إليهما عامل علي عمرانَ بن الحصين، وأبا الأسود الدؤلي فأتيا القوم في معسكرهم فناديا طلحة[1] فلما أجابهما قال له ابو الأسود :

يا أبا محمد! إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله، وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا في بيعته، فلم نغضب لعثمان إذ قُتِل، و لم نغضب لعلي إذ بويع، ثم بدا لكم، فأردتم خلع علي (ع)، ونحن على الأمر الأول، وعليكم المخرج مما دخلتم فيه.

وقال له عمران بن الحصين: يا طلحة! إنكم قتلتم عثمان فلم نغضب إذ لم تغضبوا، ثم بايعتم عليا، وبايعنا من بايعتم فإن كان قتل عثمان صوابا فمسيركم لماذا؟ وإن كان خطأً فحظكم منه الأوفر، ونصيبكم منه الأوفى؛ فصارحهما الرجل بدخيلة نفسه وقال لهما: يا هذان! إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره، وليس على هذا بايعناه، وأيم الله ليسفكن دمه.

ثم أتى الرجلان الزبير[2] ، فسألاه عن مسيره هذا فقال: إن طلحة وإياي كروح في جسدين، وإنه والله يا هذان قد كانت منا في عثمان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه، وأخيراً أتى الرجلان أم المؤمنين فقالا لها: يا أم المؤمنين ما هذا المسير أمعك عهد به من رسول الله ﷺ ؟

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق.

فقالت : قُتِلَ عثمان مظلوماً، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل؛ فقال لها أبو الأسود: ما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا؟

وقد اراد عامل علي (ع) على البصرة عثمان بن حنيف أن يمنعهم من دخول البصرة وخرج إليهم بأصحابه ومن خف معه فقالا لم نأت لحرب، ثم[1] وقع الاتفاق بينهم على هدنة إلى أن يأتي علي فإما أن يصطلح هو والقوم، وإلا فيرى كل رأيه وعلى هذا كتبوا بينهم كتاباً بذلك، فلما وضع عثمان بن حنيف السلاح وتفرق أصحابه غدر به القوم في غلس الليل فنتفوا لحيته وشاربيه وأشفار عينيه وحاجبيه، وانتهبوا بيت المال، وأخذوا ما فيه، بعد أن قتلوا الحراس على بيت المال وهم أربعون جندياً من الشرط، ثم استمال القوم أهل البصرة بالوعد والوعيد والترهيب والترغيب وكانوا ثلاث[2] فرق، فرقة مع عائشة وطلحة والزبير، وهم نبوطية والأزد، وفرقة اعتزلت الجهتين فلم تنتصر لأحدهما وهم الأحنف بن قيس وجماعته من بعض بطون تميم، وفرقة كانت مع علي وخرجت إليه لما ورد البصرة تنصره وهم عبد القيس.

ولما فعل القوم ما فعلوه بعثمان بن حنيف، غضب حكيم بن جبلة العبدي ـ وكان ممن خرج على عثمان ثم اعتزل بأهل البصرة[3] ـ فقام بواجبه، وجاهدهم بمن تبعه وفاء ببيعته حتى خرَّ صريعاً شهيدالواجب والحق[4].

ووصل علي (ع) بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن أهل بدر وأحد

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، والإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) الطبري، ج ٣ ، ص ٥١٥.

(٣) في الثورة يوم الدار.

(٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ .

وغيرهم من أصحاب محمد (ص) وبمن[1] سارع إلى طاعته من العشائر والقبائل وبمن جاءه من أهل الكوفة وكان عددهم عشرين ألف محارب؛ وقابله طلحة والزبير بمن سارع إلى الفتنة بثلاثين ألف محارب.

وقد جرب علي (ع) ردعهما عن إراقة الدماء، وقتل النفوس البريئة، وكتب[2] إليهما ثم طلبهما إلى ما بين الجيشين ووعظهما، وخوفهما الله والفتنة ثم ذكّر الزبير بقول الرسول ﷺ له ، من أنه ليقاتل علياً وهو له ظالم[3]، فأظهر الزبير ندماً وعاهد على ألا يقاتله، ورجع إلى قومه على نيته تلك؛ فأثار ابنه عبد الله حفيظته، وعيره أن رجوعه لجبن فيه، فأخذت الزبير الحمية حتى دعته إلى الحنث بيمينه - ألا يقاتل علياً - وهاجم أصحاب علي فأمرهم علي (ع) أن يفرجوا له وكأنه عرف ما كان فاخترق الزبير الصفوف ثم رجع وترك أصحابه وترك المصاف والقتال وكر راجعاً إلى المدينة، فلحقه عمرو بن جرموز - أحد رجال الأحنف بن قيس التميمي - بوادي السباع فقتله غدراً [4].

وقد صابرهم الإمام (ع) إما طمعاً في رجوعهم، وإما ليبدأوه بالقتال فتكون له حجة أخرى عليهم، وهكذا كان فقد بدأ أصحاب طلحة وعائشة برمي النبال فقتلوا رجلاً، ثم قتلوا عبد الرحمان بن بديل الخزاعي [5].

---

(١) الطبري، ج ٣ ، ص ٥١٧ ، والفخري ، ص ٦٣ .

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٧١ .

(٣) الفخري ، ص ٦٣ .

(٤) الفخري، ص ٦٣ ، واليعقوبي، ج ٢ ، ص ٦٥٩ .

(٥) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، والإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٧٧ .

وقد رأى علي (ع) أنه قد أعذر إليهم بما فيه الكفاية، ورأى أن ليس لهذا الداء إلا السيف دواء، ورأى أنه إذا صابرهم أكثر قُتِل الكثير من رجاله، وهم وقوف يتلمظون إلى القتال، فدفع رايته إلى ابنه محمد المعروف بابن الحنفية[1] وامره بالزحف وهكذا التحمت المعركة.

وسمع علي (ع) أن عائشة تلعن قتلة عثمان[2] ، فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل.

والتحم الجيشان في أشد معركة كانت في الإسلام، وصابر القوم بعضهم بعضاً على الموت، بعضهم لا ينهزم تدنياً، والبعض الآخر لا ينهزم حمية، أو عصبية، إلى أن حمل علي (ع) بنفسه فطحن القوم طحناً، وحصدهم بسيفه الذي حصد به مشركي قريش والعرب وقال ابن قتيبة أن طلحة[3] لما رأى اشتداد المعركة رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كنا داهنا في أمر عثمان، وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى، قال فما مضى كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى بها على نفسه[4] .

وهكذا وضعت الحرب أوزارها بانتصار جيش علي[5] (ع) انتصاراً ساحقاً، ولما كانت الهزيمة نادى مناديه في عسكره لا يقتلنَّ مدبر، ولا يجهز على جريح، ولكم ما في عسكرهم، وعلى نسائهم العدة، وما كان لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله.

---

(١) (٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٧٧ ، اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٣) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٤) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥) ص ١٤٣ ، والإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٧٩ .

ونادى مناديه[1] أيضاً من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، وعامل علي (ع) أم المؤمنين أحسن معاملة عاملها منتصرٌ منهزماً فعفا عنها، و لم يعاتبها إلا بلين القول ثم أرسلها إلى المدينة، وارسل معها أربعين امرأة من عبد القيس ألبسهن لباس الرجال، وأمرهن ألا يظهرن لها أنفسهن حتى يصلن الحجاز، فلما وصلن بها نزعن عمائمهن، فقالت عائشة لما علمت بحالهن جزى الله ابن أبي طالب[2] الجنة.

وكانت حصيلة معركة يوم الجمل عشرة آلاف قتيل من الفريقين كما يقول الطقطقي[3]، وقال غيره أن القتلى زادت على الثلاثين الف قتيل من الجانبين[4] وقال ثالث إن القتلى بلغت عشرة آلاف من أهل البصرة وخمسة آلاف من أهل الكوفة[5] وقيل غير ذلك في عدد القتلى من قلة أو كثرة.

وهكذا انتهت هذه المعركة وكانت يوم الخميس عاشر جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة [6].

---

(١) الأخبار الطوال، ص ١٤٣ .

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الفخري ، ص ٦٤ .

(٤) اليعقوبي، ج ٢ ـ ص ١٥٩ .

(٥) الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٤٣ .

(٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ٥٣٩.

الفصل الثاني

أسباب الثورة ودوافعها

يتساءل الباحث، والقارىء، والمطالع لثورة أصحاب الجمل عن: أسباب هذه الثورة ودوافعها، وعن الحوافز التي دفعت بشيخين من شيوخ الصحابة، وقدماء المسلمين، وبأم المؤمنين، زوجة الرسول ﷺ وابنة الخليفة، للثورة على الإمام (ع).

هل الدوافع والأسباب هي المطالبة بدم عثمان، والثأر له، وإدانة قتلته؟ أم الأسباب هي أن الشيخين الثائرين بايعا مكرهين، فهدرت بهذا الإكراه كرامة كل منهما أم هل الأسباب هي عدم جدارة علي للخلافة لأن فيه عيباً من سن أو دين، أو ضعف، أو غلظة، أو تساهل في تطبيق الأحكام، أو حب دنيا تجعله غير جدير بخلافة النبوة والرحمة، أم كانت ثورتهم لصالح الأمة الإسلامية لأنهما يريدان تحقيق عدالة عجز عن تحقيقها غيرهم؟ أم هل كانت ثورتهم دفاعاً عن الطبقات الفقيرة أم كانت لمصالح شخصية ومآرب فردية، وحزازات نفسية أم طريقاً للسلطة ووسيلة

للخلافة والتملك؛ أسئلة تبحث كلها عن جواب، وأيها هو الجواب الصحيح.

أما الطلب بدم عثمان، أو إرادة الأخذ بثأره، وإدانة قتلته، فهو شعار الثورة، والستار الذي اختبأت خلفه، وتسترت به، خوفاً من أن يفضح بعضهم الصبح.

وعند هذه النقطة نقف، وعن هذا الجواب نبحث عن مقدار ما لهذه المناداة ولهذا الشعار ـ أعني الطلب بدم عثمان ـ من الواقعية في نفوسهم هم، وفي نفوس معاصريهم أجمع.

وحيال تحقيق ما لهذه المناداة من الواقعية، لا بد لنا من الوقوف لحظات لنعرف موقف هؤلاء من عثمان ومن الدفاع عنه عندما كان أحوج ما يكون للدفاع عنه والانتصار له؛ وهذه اللحظات التي نقفها إنما نقفها على التاريخ الإسلامي نسأله، ونستشهده على ما كان، وعن الواقعية، والحقيقية لتلك المناداة بذلك الشعار.

وإذا رجعنا إلى التاريخ نسأله، نراه يجيب تارة بإجمال، وأخرى بتفصيل؛ أما الإجمال فيتمثل باتهام علي لطلحة والزبير يوم الجمل بأنهما قتلة[1] عثمان؛ ويقول اليعقوبي[2] إن أكثر من كان يؤلب على عثمان هم طلحة والزبير وعائشة، وكان طلحة من أكبر المساعدين على عثمان، وأن أم المؤمنين أول من

(١) الطبري، ج ٣ ، ص ٤٦١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

أمال حروفه[1] وأمثال ذلك كثير في بطون الكتب وزوايا التاريخ الإسلامي، الـذي وإن كان قد صانع ما صانع، وهالته الأنوار القدسية التي ظللت الصحابة وخصوصاً أهل بدر وأحد وغيرهما من وقائع النبي الشـهيرة، إلا أن فلتـات كـانت تخـرج مـن أفكار وأقلام أولئك المؤرخين تنير الطريق، وتهدي إلى السبيل، والقليـل يعـني عـن كثـــير ومـــا ذكرنـــاه، هـــو لســـان المؤرخـــين أجمـــع، إلا أن بعضهـــم فصّل وبسط.

وتظهر واقعية تلك المناداة بذلك الشعار بأجلى وأوضح ما يمكن أن تظهـر في ما ذكر من مواقف وأقوال لرؤساء الثورة الثلاثة حـول عثمـان وحياتـه والثـورة عليه ومقتله، وفي ما ورد من آراء لهم حول الخليفـة الجديـد علـي (ع) ودافـع كـل منهـم للثورة عليه وموقفه من الخليفة المقتول.

أما أم المؤمنين عائشة، فإن عثمان عندمـا[2] ولي الخلافـة، أو بعدهـا بزمـن أنقصها من عطائها ما زادها عمر بن الخطاب على بقيـة أمهـات المؤمنـين وسـاواها عثمان بهن، فأثار ذلك حفيظتها عليـه فجاهرتـه بـالثورة وشـاركت في الكتابـة إلى الأمصار تدعوهـم إلى الثورة عليه حتى قال محمـد بـن طلحـة[3] : دم عثمـان ثلاثـة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج - يعني عائشة - وثلث على صاحب الجمل الأحمـر - يعني أباه طلحة - وثلث على ابن أبي طالب؛ فضحك السـائل الجهـني وصدقـه في الأولين وكذّبه في الأخير ولحق بعلي (ع).

---

(١) الفخري، ص ٦٢ ، والعقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ ، وعصر المأمون ، ج ١ ، ص ٥ ..

(٣) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٦ .

ولقد عاتبها مروان في كتابتها للأمصار تحرضهم على الخليفة الثالث لما اشتد الأمر على عثمان فقال لها[1] : هذا عملك كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه.

و لم تنكر عائشة ما اتهمها به مروان، بل سكتت، والسكوت في مثل هذه المواقف إقرار.

ولما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا دلّت[2] يوماً قميص رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو محتشد بالمسلمين وعثمان يخطب، وصاحت: (هذا جلباب رسول الله ﷺ، لم يَبْلُ ، وقد أبلى عثمان سنته) .

فقال عثمان: ربي اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم.

بل ليس أدل على ثورتها على الخليفة، وإرادتها له مصيراً كالذي صار إليه من امتناعها عن السعي بالصلح بينه وبين رعيته، بل ومجاهرتها برأيها علناً فيه، وقد جاءها مروان بن الحكم وقد تهيأت للحج فقال لها: يا أم المؤمنين لو أقمت، فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس؟ فقالت له: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج، فقال لها: يُدفع لك بكل درهم انفقته درهمين.

ويظهر أن صبر أم المؤمنين فرغ فجاهرت الرجل برأيها في عثمان وقالت له: (لعلك[3] ترى أني في شك من صاحبك، أما والله لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري وأنا أطيق حمله فأطرحه في البحر).

---

(١) العقد الفريد، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ ، وعصر المأمون ، ج ١ ، ص ٥ ..

(٣) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ وعصر المأمون، ج١ ، ص ٥ .

ويقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين[1] أن عائشة كانت في طريق رجوعها من مكة وبلغها قتل عثمان، وبيعة طلحة فاستبشرت، ثم بلغها أن علياً هو الذي بويع فتنكرت وضاقت عليها الأرض، ورجعت تزعم الطلب بدم عثمان.

ويقول الدكتور[2] أيضاً أن عائشة كانت من أشد الناس إنكاراً على عثمان، ثم تنقلب نقمتها لما يبلغها تولية علي الخلافة، وتصيح: غضبنا لكم من سوط عثمان أفلا نغضب لعثمان من سيفكم.

هذه بعض من الأرقام التي تشير إلى موقف أم المؤمنين من الخليفة الثالث؛ وعلى ضوء ما تقدم فهل لنا أن نعرف لماذا ثارت على علي (ع) ، على الخليفة الجديد الهاشمي.

ربما يجد الباحث أسباباً لعدم رضاها بخلافة الإمام (ع) منها قديم يرجع إلى عهد الرسول ﷺ، ومنها ما يرجع إلى عهد خلافة أبيها أبي بكر، وبعضها يرجع إلى أواسط خلافة عثمان، عندما بدأ بعض المسلمين ينكرون على عثمان، ولك أن تقول أن بعض هذه الأسباب شخصية محضة، وبعضها بيتية صرفة.

وأول ما يطالعنا من هذه الأسباب إشارة الإمام على النبي[3] ﷺ بطلاقها لما كانت قضية الافك وقبل نزول تبرئتها، وقد خاضوا ـ وعلى الأخص المنافقون ـ في عرض النبي ﷺ، وقد استشار النبي ﷺ يومئذ علياً فأشار عليه إشارة المشفق

(١) الفتنة الكبرى، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٣) شرح النهج، ج ٣ ، ص ٢٩٦ .

الناصح الذي آلمه ان يلغ الناس في عرض الرسول ﷺ، أشار عليه بطلاقها ليسكت لغط الناس، وليس معنى هذه الإشارة هو الاتهام لأم المؤمنين، حاشا علياً، وحاشا أم المؤمنين من هذه التهمة، وكيف يتهم علي امرأة بشيء لمجرد قالة بعض من لا خلاق لهم، وخصوصاً إذا كانت هذه الامرأة مثل زوجة الرسول ﷺ وبنت أبي بكر أحد أكابر شيوخ الصحابة، وقد تربَّت ونشأت في بيتي شرف ودين وعصمة.

ولكنها إشارة مشفق كما قلنا، وليخلص النبي ﷺ من قلق نفسي سببه قالة أهل الإفك من المنافقين.

وأكبر الظن أن أم المؤمنين لم تتمكن من أن تنسى لعلي موقفه ذاك، وأمر ثان من الأهمية بمكان وهو أن كثيراً من الحوادث التي جرت بين عائشة[1] وبين فاطمة بنت الرسول ﷺ هي مما يجري عادة بين المرأة وبنت زوجها، بل يكاد يكون ذلك طبيعة بشرية وقاعدة مستقراة لا يشذ عنها إلا النادر ، فيتولد من ذلك ما يوغر الصدور، ونوع من ضغينة بين المرأتين، وطبيعي جداً أن يُتهم الإمام (ع) من قِبل أم المؤمنين بمناصرته لزوجته البتول.

و لم تتمكن الأيام من إزالة ما في القلبين من عتب أو لوم بل جاءت الحوادث يوم السقيفة من امتناع علي (ع) عن بيعة[2] أبي بكر إلى وفاة زوجه البتول، فكان علي يرى أنه أحق بالأمر منهم، وكان أبو بكر وعمر يريانه أكبر منافس يُخاف منه.

---

(١) شرح النهج ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ .

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ، ص ١١ . وغيرها.

وطبيعي جداً أن تقف عائشة من علي (ع) موقف البيت المـالك كمنـافس له على السلطة والخلافة.

ويبرز للوجود أمر ثالث له شأن في المنافسة، فإن الشيء الـذي لا ينكـر أن أم المؤمنين كان في نفسها من الطموح الشيء الكثير، وقد كـانت السـلطة في بيتهـا سواء في عهد رسول الله ﷺ أو بعد وفاته في عهد خلافـة أبيهـا، فلمـا تـولى عمـر رأت أن السلطة فاتتها واصبحت كأية امرأة مـن المسلمين، وإن فضلهـا عمـر[1] ، وزاد في عطائها حتى على ازواج النبي ﷺ.

إلا أن عمر كان من الحكمة والشدة، ما لا يدع مجـالاً لطعـن طـاعن، وإن كان هناك شيء من ذلك فإنما هو تهامس، وتسارر، لا يخرج عن ذلك.

ووليَ الخلافة عثمان، وسار في السنتين الأولين[2] من خلافته سيرةً رضيهـا الناس، ثم بدأت المطاعن، وربما رأت عائشة أن الوقـت قـد حـان للعمـل لا رجـاع السلطة إلى بيتها إن ذهب الخليفة الموجود في حال سـبيله، وسـواء أكـانت السـلطة الراجعة بيد ابن عمها طلحة، أو بيد صهرها وزوج أختها الزبير، فإنها أيدت الثـوار بل كاتبت[3] الأمصار، وقابلت عثمان بأشد مـن وخـز الأسنة[4]، بـل صـارحت مروان بتمنيها لقتله[5].

وليس أدل على طموحها لأن تكون السلطة في بيتها من استبشـارها[6] لما بلغها بيعة الناس لطلحة التيمي لما قتل عثمان.

---

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢.
(٢) تقدم الإشارة إلى ذلك.
(٣) العقد الفريد، ج ٢ ، ص ٢١٨ .
(٤) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٥) عصر المأمون ، ج ١ ، ص ٥ .
(٦) الفتنة الكبرى، ج ٢ ، ص ٢٥ ـ ٢٤ . واليعقوبي، ج ٢ ـ ص ١٥٦ .

ولكنها لما تأكدت الخبر، وعلمت أن الناس بايعوا علياً رأت أن فرصة إرجاع السلطة إلى بيتها قد أفلتت من يدها وصارت إلى منافس بيتها التقليدي، رجعت تنادي بأن عثمان قُتل مظلوماً، وتخطب في الناس: غضبنا لكم من السوط والعصا أفلا نغضب لعثمان من القتل [1].

وأما طلحة بن عبد الله التيمي فموقفه من عثمان ومن التحريض عليه أكثر وضوحاً وأظهر بروزاً من مواقف غيره من رؤساء الثورة يوم الدار، ومن رؤساء الثورة يوم الجمل.

فهو منذ اليوم الذي رشحه عمر بن الخطاب للخلافة بأن جعله من الستة أهل الشورى، وعنقه مشرأبة للخلافة، يتحين الفرص، ويجمع حوله الأنصار، ويُعِد للأمر عدته، وقد عرفتَ فيما مر من أن أهل البصرة الذين حضروا إلى المدينة، وحاصروا الخليفة الثالث، كان هواهم مع طلحة، وقد هتفوا باسمه، كما هتف الكوفيون باسم الزبير.

ولما بدأ الطعن على عثمان، كان طلحة بين البارزين في الطعن عليه، وتأليب الناس، وتحريضهم على الثورة عليه.

وكما عرفت فيما مر فإن طلحة كان ممن كاتب الأمصار، وأنه خلال ثورة يوم الدار منع وصول الماء إلى عثمان، ليزيد في إضعاف المقاومة، وعرفت أيضاً أنه أقفل بيت المال ومنع عثمان من أن يوزع على الناس أُعطياتهم، ورواتبهم، ليزيد من إشعال النقمة على الخليفة الثالث.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٦٥.

وفي كل ما تقدم لا بد من القول أن الناس في البصرة آنذاك لم يطمئنوا إلى صدق النية في ثورة طلحة والزبير، ولا في واقعية الشعار الذي ناديا به.

وقد تقدم بجابهة عمران بن الحصين وأبي الأسود الدؤلي لطلحة والزبير بتهمة قتل عثمان، فلم ينكراها (١).

كما أعلن سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة اتهامهما الصريح بقتل عثمان، أعلناه لمروان وعائشة ولجمهور الخارجين معهم من مكة إلى البصرة (٢).

اتهام صريح بل قال سعيد لعائشة ولمروان إنهما إذا أرادا قتلة عثمان فهما معهما - طلحة والزبير - .

وسعيد بن العاص أَمَسُّ بعثمان رحماً منهما فإنه أموي من قبيلته وعشيرته وأحد أكابر ولاته - ولاة الكوفة - وكان أجدر منهما بالثورة وبالحرب، ولكنه رأى أن الأمور انعكست، والمفاهيم انقلبت رأساً على عقب وأصبح البريء متهماً، والمتهم بريئاً يطالب بدم القتيل، الذي لولاه لما قُتل.

وهل لنا أن نقول أن أسباب ثورة طلحة لم تكن غايتها إلا الوصول إلى الكرسي والسلطة.

تجيب الشواهد والآثار بنعم وهي متعددة منها:

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٥

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٣ .

أولاً : اختلافه مع الزبير على إمامة الجماعة في الصلاة[1] لما وردا البصرة؛ لأن إمامة الجماعة في الصلاة طريق للرئاسة، والزعامة ووسيلة إلى الخلافة، ولما وقع الاختلاف بينهما فيمن يتولى إمامة الجماعة أصلحت بينهما عائشة على أن يصلي عبد الله بن الزبير بالناس يوماً، ويصلي محمد بن طلحة بالناس اليوم الآخر.

فلو صحت نياتهما، وصح ندمهما لما اختلفا على إمامة الجماعة.

ثانياً : كتاب معاوية[2] لطلحة والزبير لما علم بخلافهما لعلي يمنيهما بالخلافة وأن يبايع لهما أهل الشام فيجعل الأمر للزبير ويجعل طلحة ولي عهده.

ثالثاً : طلبهما الولاية[3] من الإمام (ع) ومنعهما إياها فإنهما جاءاه فقالا له: قد نالتنا جفوة بعد رسول الله ﷺ، فأشركنا في أمرك، فقال لهما: أنتما شريكاي في القوة، والاستقامة، وعوناً على العجز.

ورواية ابن قتيبة أوضح مقصوداً، وأدلُ مراداً، قال[4]: أتى الزبير وطلحة علياً بعد فراغ البيعة، فقالا له: هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، على السمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر؛ قالا: لا، ولكنا

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٢) شرح النهج، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(٤) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٥١ .

بايعناك على أنا شريكاك في الأمر فقال علي (ع): لا، ولكنكما شريكان في القول، والاستقامة، والعون على العجز والأود.

قال ابن قتيبة: وكان الزبير[1] لا يشك في ولاية العراق، وكان طلحة لا يشك في ولاية اليمن.

وقد عاتبه ابن عباس، وأشار عليه أن يولي الزبير البصرة، ويولي طلحة الكوفة، فقال له كلاماً كثيراً وقال من جملته: لولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي؛ وقال أيضاً: لو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام.

رابعاً : تصريح طلحة لعمران بن الحصين ولأبي الأسود الدؤلي، وقد قابلاه بالتهمة باشتراكه بدم عثمان وسألاه عن مقدمه البصرة، فأجابهما: (يا هذان إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره، وليس على هذا بايعناه، وأيم الله ليسفكن دمه) [2].

وهذا تصريح من هذا الصحابي الجليل أنه إنما خرج طلباً للملك وأنه رأى علياً استأثر بأمور الخلافة فلم يشركه فيها، فأغضبه وقال لهما الزبير وقد أتياه يسألانه عن قدومه البصرة: إن طلحة وإياي كروح في جسدين.

خامساً: وقد سألهما أحد أهل البصرة عن مقدّمهما إلى البصرة، فسكتا فأعاد عليهما السؤال وناشدهما الله وصحبة الرسول ﷺ، فقالا: بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا جئنا نطلبها[3].

(١) المصدر السابق.
(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٥ .
(٣) شرح النهج، ج ٢ ، ص ٤٩٩.

ومثل ذلك جواب الزبير لعلي (ع) وقد سأله فقال له: ألم تبايعني طائعاً غير مكره، فما الذي رابك مني فاستحللت قتالي؟ فأجابه الزبير أنا مع الخوف الشديد مما نحن عليه نطمع أن نلي مثل الذي وليتم[1] .

وقد فسر كلامه بحرُ الأمة ابن عباس : بأنه مع الخوف الشديد ليطمع أن يلي الخلافة مثلما ولي علي.

ومثل هذه الأرقام كثير في زوايا كتب التاريخ وكتب الأدب القديم.

ومن الدلائل أن الثورة لم تكن بقصد الانتصار لدم الخليفة الثالث، وأن دعوى وشعار الأخذ بثاره ستار للسلطة قول طلحة لما[2] التحم الجيشان يوم الجمل ـ وقد تقدم ذلك في الفصل السابق ـ ؛ فطلحة كان يتطلع إلى الخلافة منذ اليوم الذي جعله عمر فيه أحد الستة من أهل الشورى، ولعله كان يتطلع إلى إرجاع السلطة إلى بيت بني أبيه، وأنه ليعلم أن الناس لا يعدلونه بعلي، كما لا يعدلون بعلي الزبير ولا غيره من الصحابة في ذلك الوقت، ولا بد من وسيلة، وليست تلك الوسيلة إلا الطلب بدم عثمان آنذاك.

وأما الزبير، فكان موقفه من عثمان أغمض مواقف الثلاثة، بل كان في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر أميل إلى علي منه إلى الخليفتين، وهو[3] أحد من امتنع عن بيعة أبي بكر مناصرة لعلي، ومشايعة له، وله يوم بويع أبو بكر الموقف

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ ..
(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٧٣ .
(٣) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٧٤ .

الصلب في دعوة الناس لبيعة علي (ع)؛ حتى أن المشهور من قول علي (ع) " ما زال الزبير منا أهل البيت حتى ولد ولده عبد الله" .

وهذا طبيعي، فقد كان الزبير ابن عمة علي، وهو خدنه ورفيق صباه، فلما شب الزبير تزوج بأسماء بنت أبي بكر أخت أم المؤمنين عائشة فمال بنفسه إلى جهة زوجته وولده ثم كان من ترشيح عمر بن الخطاب له للخلافة فاشرأبت نفسه إلى السلطة، فحاله وحال طلحة في مقتل عثمان وفي حربهما لعلي حال واحدة كما تقدم من قول الزبير أنه وطلحة روح واحدة في جسدين.

ومن هنا اتضح الجواب عن سؤالين مما تقدم، ووضح أن الأسباب هي حب التملك والسلطة وليس وراءها ولا أمامها شيء غيرها؛ وأما أن علياً (ع) غير جدير بالخلافة فشيء واضح يكذبه الوجدان، ويدفعه الحس، فإن الأمة الإسلامية فيه على رأيين، وأحد الرأيين أنه أولى الناس بالخلافة وأجدرهم بها، وثاني الرأيين أنه رابع أربعة.

وقد ادعى طلحة والزبير أنهما بايعا مكرهين[1] وهذا أمر كسابقه يكذبه الحس والوجدان فإن علياً لم يكره أحداً على بيعته، ولو أكره أحداً لأكره عبد الله بن عمر وهذا ليس بدونهما مقاماً بين المسلمين في نفسه، وله فضلاً عنهما من مكانة أبيه في نفوس الناس ما ليس لهما. فإن ادعيا أن علياً أكرههما على بيعته لأنه يخاف مكانتهما فبالأحرى أن يكره عبد الله بن عمر على ذلك لمكانته الرفيعة، ومكانة أبيه العالية في نفوس أهل الإسلام، وكذلك لم يكره سعد بن أبي وقاص

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٦ .

ولا أسامة بن زيد ولا غيرهما، ولقد عرض عليهما أمير المؤمنين أن يبايعهما قبل أن يبايعه الناس فأبيا عليه ذلك وقد صرح طلحة بأن علياً لو فعل ذلك لأبى عليه المهاجرون والأنصار[1].

وما ذنب علي إذا كان الناس لا يعدلونهما به ولا يرون لهما وجوداً ما دام علي حياً.

وقد ندم الزبير كما عرفت فرجع من المعركة، وكان يعبر عنها أنها فتنة[2]، ويقول إننا نبصر ولا نبصر؛ وندم طلحة [3] وأظهر ندمه، وندمت عائشة وبكت بل وكانت كلما ذكرت يوم الجمل تبكي وتقول[4] : ليتني مت قبل يوم الجمل، وقال الزبير وقد سأله شخص بعد رجوعه من المعركة إلى أين يذهب، فقال: مطلوب مغلوب، يغلبني ابني، ويطلبني[5] ذنبي.

ولنختم كلامنا في هذا الفصل بكلمة من جواب الصحابي سعد بن أبي وقاص لمعاوية، وقد كتب إليه يطلب منه أن يقتدي بطلحة والزبير ويطلب بثأر عثمان، فأجابه سعد [6] بجواب طويل منه، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما والله يغفر لأم المؤمنين.

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه قبل ختامنا هذا الفصل، وهو أن أبا جعفر

---

(١) نفس المصدر.
(٢) الطبري، ج ٣ ، ص ٤٩٢.
(٣) الطبري، ج ٣ ، ص ٤٩٦ .
(٤) شرح النهج، ج ، ص ٢٩٦.
(٥) شرح النهج، ج ٢ ، ص ٢١٨ .
(٦) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

الطبري في تاريخه[1] ذكر أن الفريقين قد مالا إلى الصلح، بل أكثر الجيشين كان لا يشك في الصلح، ولكن هناك يهودي اسمه عبد الله بن سبأ ألّفَ الناس حوله، وجعل منهم حزباً، كان من أهدافه إشعال الفتنة بين المسلمين، وأنه هو الذي ألّب الناس على عثمان، وهو الذي حرَّك الحرب يوم الجمل.

وتبع الطبري بعده جماعة من السذج الطيبي السريرة، فأخذوا ما رواه بطريق سيف بن عمرو عن حوادث بن سبأ أخذ المسلمات.

والذي نظنه أن اختراع هذه الشخصية إنما كان لتبرئة طلحة والزبير من إشعال نار الحرب، أو لهدف غير ذلك لا نعلمه.

وعجيب لشيوخ المسلمين وكبار الصحابة سواء في موقفهم من علي وصحبه أو طلحة والزبير وأم المؤمنين وجمعهم هل وصلت بهم الغفلة إلى حد أن تقطع الأمور دون علمهم جميعاً.

وقد تنبه إلى أسطورة ابن سبأ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين[2] والدكتور مرتضى[3] العسكري في كتابه عبد الله بن سبأ فكذبا هذه الأسطورة ببراهين علمية، وبحجج منطقية لا تقبل الدفع.

(١) تاريخ الطبري، واقعة الجمل، ج ٣ ، ص ٥٠٠. وما بعدها.
(٢) الفتنة الكبرى، ج ٢ ، ص ٤٣ .
(٣) عبد الله بن سبأ.

الفصل الثالث

نتائج الثورة

هل حققت الثورة أهدافها، وهل حققت غاياتها ونتائجها، أم لا.

كانت حصيلة المعركة التي تسببت عن هذه الثورة عشرة آلاف قتيل من الجانبين على ما يقول الطقطقي[1] ، وزاد عدد القتلى من الجانبين على ما يقوله اليعقوبي[2] وبلغت عند المؤرخ الطبري[3] عشرة آلاف قتيل من جيش البصرة، وخمسة آلاف قتيل من جيش الكوفة، وقيل غير ذلك .

قتلى ما كان أجدرهم أن يسدوا بنحورهم ثغور المسلمين، ويساعدوا امامهم على رفع راية الإسلام عالية ويكملوا من الفتوحات ما بُدء به، وما كان أجدر بالثورة من رؤساء وتابعين أن يسكتوا ويساعدوا بسكوتهم إمامهم على تحقيق ما في نفسه من عدالة اجتماعية رفيعة شاملة تجتاح العالم الإسلامي، فترفعه

---

(١) الفخري، ص ٦٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٣) تاريخ الطبري، ج ٣ ، ص ٥٤٣ .

إلى حياة أفضل، وأكرم، وكانت هذه المعركة في صالح معاوية بطريق غير مباشر، قبل أن تكون في صالح غيره سواء كان النصر فيها لعلي أو كان النصر فيها حليف طلحة والزبير وأم المؤمنين، فإن معاوية كان يعلم أنه إذا انتصر طلحة والزبير وأم المؤمنين، كانوا عليه أهون من علي (ع)، وإن انتصر علي، فلا يكون هذا النصر إلا بإضعاف جيشه، ويعلم معاوية علماً أكيداً أن الجيش الذي يقوده علي لحربه مؤلف من الكوفيين والبصريين وغيرهم، فلا يكون به من التماسك ما يحفظ مواطىء اقدامه من النصر. كيف وقد ورثت هذه المعركة علياً (ع) أعداء كثيرين من أهل البصرة لكثرة من قُتل منهم يوم الجمل.

وكأن ثورة يوم الدار لم تكن كافية لتفسخ المسلمين، وتقسمهم إلى شيع، وأهواء فجاءت ثورة الجمل تكمل ما نقص، وتحيي ميت الأحقاد، وتفتت المسلمين إلى فتت صغيرة، يسهل سحقها، والقضاء عليها.

ولقد كان النزاع بين الشيعة والسنة في عهد الخليفتين لا يعدو أن يكون نزاعاً فكرياً، مبنياً على قواعد العلم، من القرآن والسنة وغير ذلك في الأولية، والأفضلية، واستحقاق الخلافة؛ ولكن بثورة يوم الجمل بدأ طور جديد هو طور النزاع الدموي.

فبينما كان المسلم يثبت رأيه، ومذهبه بالقرآن والأخبار الشريفة، إذا به يميل إلى الاحتكام إلى السيف، وهكذا شاءت السياسة ورحم الله الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية في عصره حيث يقول: لعن الله السياسة والسياسيين، وكل ما اشتق من مادة ساس ويسوس وسائس ومسوس الخ...!

الباب الثالث

■ يوم النهروان

الفصل الأول

الثورة في طورها الدموي

من هم الخوارج؟ وما حقيقتهم؟

في فَنّيْ الأدب واللغة تطلق لفظة الخوارج على كل جماعة، مهما كان عددها من قلة أو كثرة، تخرج على السلطة القائمة في بلادها.

ولكن أهل التاريخ أطلقوا لفظة ـ خوارج ـ على الفئة التي خرجت على أمير المؤمنين علي (ع) بعد التحكيم، والذين كان خروجهم سبباً لوقعة النهروان الشهيرة، أولى معاركهم في الإسلام، وقد صار هذا اللفظ علماً على هؤلاء، دون سواهم، بل وحتى صار المعنى الأول نادراً ما يُفهم من هذا اللفظ إلا بقرينة، ومعنى، والخوارج هم الطائفة الثالثة في الإسلام، إن لم نقل أنهم الطائفة الثانية كما سيُعرف.

نشأتهم :

أحَقّ أن منشأ الخوارج حدث يوم تقسيم غنائم هوازن[1] ، بعد معركة حنين وقد أعطى النبي ﷺ بعض مستحدثي الإسلام والإيمان، عطايا كثيرة، تألفاً لقلوبهم، وتخفيفاً لغلواء صدورهم، ووكل المهاجرين، والأنصار إلى إيمانهم؛ فاعترضه ذو الخويصرة التميمي وقال: يا محمد ما أراك عدلت؟وغضب الرسول ﷺ وقال وقد أراد قوم قتل الرجل في حديث طويل: دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، أو قال: يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

والرجل تميمي كما عرفت وغالب رؤساء الخوارج يوم التحكيم، ويوم النهروان من بني تميم كما ستعرف منهم حرقوص بن زهير وذو الثدّية، وعروة بن أديّة.

فلعل الرجل قد بذر بذرته فنمت وترعرعت في أفياء تميم، ومن في جوارهم ممن قرب منهم داراً من سعد بن بكر، حتى شبت يوم التحكيم، أو قبله؛ ربما كان ذلك ولا يبعد أن يؤثر الرجل في أقربائه وأهل رحمه ويدلك على أن الرجل أقدر على بث ما في رأسه من فكر بين أقربائه، لأنهم أكثر استماعاً له، وأكثر به رأفة، وألين معه معاملة، كما جاء في القرآن المجيد في أوائل بعثة الرسول ﷺ ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ .

---

(١) السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٤٠. والملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٤٥ وسيرة ابن هشام، ج ٤ ، ص ١٤٤. الكامل للمبرد، ج ٢ ، ص ١٣٩ . وشرح النهج ، ج ١ ، ص ٢٠٢.

أو أن ثورة الخوارج حركة ارتجالية صرفة؛ نشأت من تضعضع أوضاع جيش أمير المؤمنين بعد أن رفع أهل الشام المصاحف يلوذون بها بعد أن عضهم السلاح وكادت الهزيمة تشملهم.

يدلك على أن الحركة مرتجلة أولاً عدم النظام فيها وتشكيك[1] عبد الله بن وهب الراسبي وغيره من الرؤساء في أحقية حركتهم ثانياً، وتلاعب[2] المهلب بن أبي صفرة القائد المسلم برؤسائهم وإفساده فيما بينهم ثالثاً.

ويمكننا أن نقول: إن حركة الخوارج كانت أفكاراً في رؤوس البعض منذ يوم توزيع غنائم هوازن، ولكنها لم تكتسب صفة الحزبية، ولا صفة الثورة والمعارضة حتى بالرأي البارز إلا بعد كتابة كتاب الهدنة والموادعة بين جيشي العراق والشام حتى يعلم ما يتفق عليه الحكمان؛ بل قد تكون آراء مخنوقة لم تخرج إلى حيز الوجود قبل يومها الموعود.

وسواء أخذنا بهذا الرأي أو بذاك، فإننا بعد اعتراض ذو الخويصرة على الرسول ﷺ في تقسيم غنائم هوازن، لا نسمع لهم ذكراً ولا نرى لهم أثراً قبل رفع المصاحف في صفين، بل وليست هناك إشارة إليهم إلا ما روي عن الرسول ﷺ فيهم[3] .

خروجهم :

لما عضت أهل الشام، وجيش معاوية يوم صفين الجراح، ورأوا الهزيمة[3]

---

(١) الأخبار الطوال، ص ١٩٤ . شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٠٤ ..

(٢) سيأتي المصدر والإشارة إليه.

(٣) سيأتي ذلك، الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٤ ، وابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١٦٠.

منهم قاب قوسين أو أدنى بعد ليلة الهرير ـ أعظم ليالي صفين ـ لاذوا بالمصاحف يرفعونها على أسنة الرماح يطلبون العمل بها وهم الذين رفضوها، في ابتداء المعركة، ورفضوا العمل بها، والانصياع إلى أحكامها، والالتزام بمبادئها، رفعوها خديعة للجماهير، وغشاً للأمة، وفراراً من السيف، وانهزاماً من معركة معلومة المصير والنتائج لو استمرت سويعات.

ولم يكن علي (ع) بالغافل عن الخدعة، والحيلة في رفع المصاحف، ونبه أصحابه على موضع الخديعة وقال لهم عن رفع المصاحف: إنما قاتلتهم ليدينوا[1] بها، وقال لهم: امضوا[2] على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلم، وابن أبي سرح، والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال، وشر رجال، ويحكم إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعلمون ما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة، ودهناً، ومكيدة. فأبى عليه الجمع ذلك وقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله.

فأعاد عليهم قوله وتنبيهه أن من رفع القرآن ليس من أهله، ولا العاملين بما فيه، ولا المنتهين بنواهيه، ولا المنزجرين بزواجره.

فقامت إليه عصابة كانوا رأس الخوارج فيما بعد منهم مسعد بن فدكي وزيد بن حصين الطائي وقالت[3] له: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا

---

(١) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٦٠.

(٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

دعيت إليه وإلا ندفعك إلى القوم برمتك، أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان.

فقال لهم علي (ع) احفظوا نهي لكم، وقولكم لي، أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

وتولى كيد الدعوة إلى إيقاف الحرب[1] وإلى إجابة القوم إلى الموادعة والمهادنة الأشعث بن قيس الكندي، وهو الذي منع من مواصلة الحرب، وأوهن قومه عن متابعتها بعد أن كان النصر منهم، قاب قوسين أو أدنى، بل[2] كان هو الذي أفسد القوم ـ جيش العراق ـ وشقه إلى قسمين، فأفلت الفرصة التي سنحت، وقضى على النصر المؤكد الذي أحرزه علي وجيشه على معاوية وقواه.

وكان لا بد لعلي أن يرضخ للأمر الواقع لأن انشقاق الأشعث انشقاق أكثرية الجيش فإن الرجل رئيس كندة، وأمير كل يماني[3] بالعراق. وقد أبوا إلا المهادنة والنكول عن ساحة الحرب.

وقد طلب القوم من علي (ع) أن يأمر قائده الأشتر بالرجوع من ميدان الحرب، وكان قد أشرف على الفتح، بل اتهموه بالتواطؤ مع الأشتر لما لم يرجع مع الرسول الأول؛ ثم رجع الأشتر من[4] ساحة المعركة لما علم أن الفتنة قد أطلت، واشرأبت بعنقها، وشاتم القوم، ووبخهم على تخاذلهم ووهنهم، وشتموه، وضربوا وجه دابته، وضرب وجوه دوابهم، وقال لهم فيما قال: يا أهل الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم عبادة وشوق إلى الجنة، فنراكم قد فررتم إلى الدنيا قبحاً لكم.

---

(١) مروج الذهب، ج ٢ ، ص ٢٧ . والأخبار الطوال، ص ١٧٤ .
(٢) العقد الفريد، ج ١ ، ص ٢١٢.
(٣) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ١٦٥ .
(٤) الأخبار الطوال، ص ١٧٨.

وهـؤلاء القـراء الذيـن عنـاهم الأشـتر، هـم رؤسـاء الخـوارج فيمـا بعـد
بد الله بن الكوا وابن وهب الراسبي وغيرهما.

وهكـذا كـان قبـول التحكيـم حيـث أجـبر علـي (ع) وأكـره عليـه
مـا لم يكـره و لم يجـبر أمـير ولا قـائد جيـش ولا سـلطان علـى ارتكـاب
.

واتفق الفريقان على أن يحكما كتاب الله تعـالى فيميتـوا مـا أمـات القـرآن،
يوا ما أحياه؛ كما اتفق الفريقان على أن يمثـل كـل فريـق رجـل ينطـق بـالقرآن
حل حلاله، ويحرم حرامه.

انتخب أهل الشام الداهية عمرو بن العـاص، وأراد علـي[1] (ع) أن يرمـي
ل الشام، ويرمي عمرو بن العاص بداهية العراق عبـد الله بـن عبـاس، أو بـالرجل
صلب الشديد الذي لا يعرف أنصاف الحلول مالك الأشتر، فيبرمان ما ينتقضه ابن
اص، وينقضان ما يبرمه.

ولكـن القـوم وعلـى رأسـهم الأشـعث أبـوا عليـه أن يحتـاط لهـم ولنفسـه،
جبروه ثانية ، على قبـول أبـي موسـى الأشـعري، كمـا أجـبروه أولاً علـى قبـول
تحكيم، وقالوا له عن ابن عباس: هل هو إلا أنت؟ وهل أنـت إلا هـو؛ وقـالوا لـه
ن الأشتر: وهل سعر الحرب إلا الأشتر.

وكأن القوم الذين نادوا بالتحكيم ـــ سـاءهم أن لا يكـون ليمـاني صـوت
رتفع وهم يمثلون كثـرة في الجيش، أصـرّوا على أن يكون الحكم يمـانياً منهم،

---

1) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١٦٠.

وأصروا بالخصوص أبي موسى الأشعري وهو غير مرضي عند علي (ع) وموقفه من تثبيط أهل الكوفة عن مناصرة علي لما خرج علي (ع) لحرب الجمل لم تنسَ بعد[1].

وقبل علي (ع) بأبي موسى مرغماً، كما قبل التحكيم في أول الأمر.

واجتمع القوم لكتابة شروط الهدنة والتحكيم[2] وزمانه ومكانه ومقدار الهدنة، وعلى أن يحيي الحكمان ما احيا القرآن، ويميتا ما أمات، وما لم يوجد في القرآن فمرجعه إلى السنة الشريفة، وأن يعملا لصالح المسلمين جهدهما ويدعا الهوى، ويبينان الطريق، وأبى الاشتر أن يحضر كتابة كتاب الهدنة، كما أبى أن يشهد عليه.

واتفق الفريقان أن يكون اجتماع الحكمين[3] في أحد المكانين إما في أذرح، وإما في دومة الجندل، كما جعل زمانه شهر رمضان من عام ٣٨ ، أو سنة ٣٧ كما ذكر الطبري وقد احتاط الحكمان لنفسيهما فأخذا على علي ومعاوية أنهما آمنان على أنفسهما مهما كانت النتائج، كما أخذا عليهما قبول ما يتوصلان إليه وما يجتمعان عليه[4].

ولما تمت كتابة كتاب التحكيم، خرج[5] به الأشعث مستبشراً كأنما كان يسر أمراً تمكن الآن من إظهاره، خرج به الأشعث يقرأه على الناس، جماعة جماعة، وقبيلة قبيلة، وفريقاً فريقاً.

---

(١) الطبري، ج ٤ ، ص ٣٦ .
(٢) نفس المصدر، ص ٣٨، وابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
(٣) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٦٣ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، والطبري، ج ٤ ، ص ٣٩.

وبينما الناس في هرج، والأشعث ماض في قراءة الكتاب على الجيوش المجتمعة وقد حاذى بسيره بني تميم وإذ [1] بصوت عروة بن أدية يرتفع في وجه الأشعث: ويكم! أتحكمون الرجال في أمر الله عز وجل، لا حكم إلا لله. ثم حمل على الأشعث، وضرب عجز دابته بسيفه.

وقيل إن هذا الرجل أول من حكّم، بل يكاد يكون إجماع من المؤرخين على ذلك؛ ونمت البذرة التي أريد لها أن تنمو، وفشا التحكيم في جيش[2] علي، ولما رجع كل من أمير المؤمنين ومعاوية بجيشه إلى بلده ينتظر ما يحكم به الحكمان انحاز الخوارج عن أصحابهم في جيش علي (ع) ووقع بينهم من التباغض، والفرقة ما لم يحصل في جيش، وكان التحكيم - لا حكم إلا لله - شعار الخوارج وعليه ركزوا مذهبهم، وبه كفروا من خالفهم من المسلمين، من علوية وعثمانية على السواء.

فلما قارب الجيش الكوفة اعتزل الخوارج[3] إلى قرية هناك تُسمى "حروراء"[4] بعدد ذُكر أنه كان اثني عشر ألف محارب، وهناك رتبوا أمرهم، ونصبوا أمراءهم وقوادهم عليهم فجعلوا أمير الحرب شبث بن ربعي، وجعلوا أمير الصلاة عبد الله بن الكوا، وعلى أن يكون الأمر شورى بعد الفتح، كما تعاقدوا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لكن بحسب طريقتهم هم لا بحسب واقع القرآن ومفهومه على أنا لا نجد لشبث بن ربعي بعد هذا ذكراً إلى ما بعد يوم

(١) الطبري، ج ٤ ، ص ٣٩ . ومروج الذهب، ج ٢ ، ص ٢٩ .
(٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٥ .
(٣) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٦٥ .
(٤) وإليها ينتسبون فيقال الحرورية.

النهروان ، ومن الواضح أن أمراء الحرب فيهم يوم النهروان لم يكن بينهم شبث بل كان عبد الله[1] بن وهب الراسبي ، وواقعة النهروان في أواخر سنة ٣٧ ـ بعد حكم الحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري؛ فلعل الخوارج لم يجدوا شبثاً جديراً بتولي أمرتهم، ولعلهم وجدوه رجلاً انتهازياً استغلالياً وافقهم على مذهبهم وسيلة إلى الأمرة والزعامة عليهم، فلما عرفوا ذلك منه اعرضوا عنه، وتركوه حائراً بين الشيعة والخوارج والأموية، لا يعرف بمن يلوذ، ولا يدري من يساير ويوافق؛ وفي سنة ٣٧ في شهر شعبان وقال الواقدي[2] في سنة ٣٨ كان من أمر الحكمين أبي موسى وعمرو بن العاص ما كان، فأماتا ما أحيا القرآن، وأحييا ما أمات القرآن، وعملا بغير السنة، وارتكباها نكراء جاهلية، وعصبية موحشة، عظُم خطبها وأثرها على المسلمين ولا يزال.

ومن آراء بعض المتقدمين، ومن تبعهم من المتأخرين أن يُعتذر عن ابي موسى الأشعري بالبساطة والجهل، ولكن الباحث في حياته يراه مداهناً شاقاً للعصا متحيناً الفرصة للانتقام؛ فقد كان موقفه من علي (ع) لما دعا علي أهل الكوفة للمسير لمناجزة طلحة والزبير ـ وكان أبو موسى واليها ـ معروفاً[3] ، في تثبيط الناس عن مناصرته، وطاعته ثم جاءت الطامة الكبرى لما عزله علي (ع) عن ولاية الكوفة، وكانت الولاية كل شيء بالنسبة إليه في حياته ومكانته فامتلأ قلبه ضغناً على ضغن، فلما جُعل أحد الحكمين أخرج ما في صدره من حقد دفين،

(١) الأخبار الطوال، ص ١٨٨ .

(٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٢.

(٣) تقدم الكلام في ذلك في ثورة أصحاب الجمل فراجع .

ورأى أن الساعة قد أزفت للانتقام، وانتقم، وهو بذلك انتقم من جميع الأمة الإسلامية، وعلى حساب مصالحها وكرامتها ودينها، كما كان انتقامه على حساب دينه وكرامته، وأبو موسى وإن لم يتمكن جهاراً من الانحياز إلى صف معاوية لأنه برأيه طليق وابن طليق لا تصلح الخلافة لمثله، ولا يصلح لها، إلا أنه وقف من[1] علي (ع) يوم اجتماعه بابن العاص موقف العدو اللدود ويظهر جلياً هذا الموقف العدائي السافر من أبي موسى لعلي (ع) بعرضه على عمرو بن العاص عبد الله بن عمر؛ وعبد الله بن عمر على مكانته السامقة، وصلاحه وجلالة شأنه لم يكن من رعيل علي ولا من رعيل أبي بكر وعمر، بل[2] هو نفسه لم يكن يرتفع إلى هذا المقام، و لم يكن أحد من المسلمين يرفعه إلى ذلك.

بعد الحكمين:

نشط الخوارج بعدما كان من أمر أبي موسى وابن العاص، إلى العمل الجدي والرأي المثمر والمجابهة الإيجابية بتحكيم السيف.

وكان الخوارج إلى حين اجتماع الحكمين يجتمعون إلى المسلمين من أهل الكوفة في مسجدهم وأسواقهم، وتقع بين الفريقين مناوشاتٌ في الجدل والنقاش الفكري يتأيد فيها كل لمذهبه ببعض من آي القرآن الكريم والسنة الشريفة، فكانوا يجابهون علياً (ع) بكل مكروه فحكموا فرادى[3]، وحكموا جماعات وعلي[4] صابر على مكروههم معتبراً تحكيمهم كلمة حق أريد بها باطل متحملاً منهم ما

(١) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٠ - ٥١ .
(٢) الإمامة والسياسة، ج ٢ ، ص ٥٣ .
(٣) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٢ - ٥٣ .
(٤) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

دام تعذيبهم لا يستهدف إلا الطعن عليه ليس إلا، وما دامت ثورتهم لا تخرج عن حدود اللسان والفكر إلى إراقة الدم ، وقطع السبل والإخلال بالأمن[١]، حتى قال له أحدهم[٢]: قبلت الدنية.

وبعد اجتماع الحكمين، وبعدما كان منهما من ضرب الأمة الإسلامية ضربتهم القاسية رأى الخوارج أن يبدلوا شكل ثورتهم، من ثورة كلامية فكرية الحكم فيها القرآن المجيد والسنة الشريفة، إلى ثورة دموية يكون المرجع فيها السيف، والسيف وحده.

وكان اجتماعهم العام عند عبد الله بن وهب الراسبي[٣] ، ووعظوا أنفسهم، وأصحابهم ورأوا أن مقامهم مع شيعة علي (ع) في بلد واحد ذنب لا يغتفر، فقر رأيهم على الخروج من الكوفة إلى بلدة يتمكنون فيها من تنفيذ حكم الله بزعمهم، كما قر رأيهم على قصد النهروان، إلى أن يتمكنوا من فتح مدينة حصينة تكون لهم درءاً وحصناً، ومكاتبة إخوانهم من خارجة البصرة، ليكونّوا معهم قوة أكبر، وأكثر إرهاباً لعدوهم، ولمن يناوئهم، وولوا أمرهم عبد الله بن وهب الراسبي، بعد أن تدافع الإمرة كثير منهم.

وهكذا خرج القوم من الكوفة إلى النهروان ووافاهم بها خارجة البصرة بقيادة مسعر بن فدكي التميمي.

وأراد علي (ع) أن يسير بجيشه لكي يحاكم معاوية[٤] وجمعه إلى الله ويعيد

---

(١) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٣ - ٥٤ .
(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٠ .
(٣) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٣ - ٥٤ .
(٤) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٦ .

الحرب جدعة فكاتب الخوارج، وأخبرهم عزمه على معاودة الحرب بعد انتهاء أجل الهدنة وأخبرهم أن الحكمين لم يعملا بكتاب الله بل تركاه وراءهما ظهرياً، وتناسياه أمام عصبية عمياء ولمخالفة واضحة للسلف الصالح من أتباع السنة الواضحة، وارتكباها بدعة مظلمة مضلة.

وكان جواب القوم له جواباً قاطعاً: (إنما غضبت[1] لنفسك، و لم تغضب لله فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة فنحن معك وإلا فنحن منابذوك على سواء).

ومع يأس أمير المؤمنين من استصلاحهم، وإرشادهم كان يرى تركهم كما هم سياسة حيث لم يكره أحداً على بيعته، كما لم يكره أحداً على البقاء معه، ثم خرج بمن اجتمع معه من جيوش وعددهم[2] ثمانية وستون ألفاً.

ولكن الخوارج لم يدعوه على أن يتركهم وشأنهم، بل عاثوا في الأرض فساداً فأخافوا السبل، وقطعوا الطرق، وأخلوا بالأمن، وخبطوا في الدين خبطة عشواء فكانوا يحاسبون الرجل منهم على تمرةٍ يأكلها[3] من مال غيره، ولا يدعونه حتى يلفظها من فمه، وقتل أحدهم خنزيراً فلم يدعوه حتى أرضى صاحبه من نفسه، وقتلوا المؤمنين فقتلوا عبد الله بن الخباب لأنه أثنى[4] على عثمان وعلي، كما أثنى على أبي بكر وعمر، فذبحوه وبقروا بطن زوجته، كما قتلوا نسوة ثلاثة من طيء.

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٥٩.
(٣) الطبري، ج ٤ ، ص ٦٠ ــ ٦١، ومروج الذهب، ج ٢، ص ٣٦ ، والكامل للمبرد، ج ٢، ص ١٣٥ وغيرها.
(٤) الطبري، ج ٤ ، ص ٦١ .

وفي كل ذلك يرى الناس أن الأشعث بن قيس[1] من الخوارج، وظهيراً لهم، ورأى علي (ع) كما رأى أصحابه أن شر هؤلاء قد استشرى، وأنه ليس من السياسة في شيء المسير إلى الشام وتركهم يعيثون في الأرض فساداً، لا يرعون لمسلم إلاً ولا ذمة، فقر رأيه ورأي أصحابه على بتر هذا الداء، والقضاء عليه، إن لم يستجيبوا إلى الحق والجماعة، ولا يجوز بحال تركهم وسيوفهم مسلطة على البلاد الإسلامية العراقية، وقد خلت من أكثر رجال الحرب والجهاد فيها.

وعلى هذا القرار سار إليهم أمير المؤمنين (ع) بجيوشه قاصداً محل نزولهم النهروان وطبيعي جداً أن علياً لم يكن ينوي قتالهم إذا رجعوا إلى الهدى الذي خرجوا منه.

وعلى النهروان تقابل الجيشان، وقد أبى الخوارج الاتعاظ والهداية، واستحبوا العمى على الرشد وذكرهم على ما كان من نهيه لهم عن قبوله التحكيم، وإصرارهم بل إجبارهم له على قبوله، بل ذكرهم تهديدهم ووعيدهم إياه[2] بتسليمه للقوم أو قتله إن لم يذعن للتحكيم، وكرر عليهم وعظه فلم يتعظوا، وزجرهم فلم ينزجروا، وطلب منهم قتلة أصحابه فقالوا: كلنا قتلتهم[3] .

واستداموا على طلبهم منه من إقرار بالكفر والتوبة، وكان أقصى فعلهم أن تنادوا - بالرواح إلى الجنة.

فكان لا بد من تحكيم السيف، وأراد علي (ع) أن لا يعجلهم[4] عن

(١) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٧٢.
(٢) الطبري، ج ٤ ، ص ٦٣ .
(٣) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٧٣ .
(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٧٤.

أمرهم فأعطاهم آخر فرصة تمكنهم من الرجوع إلى الحق، والسلامة بالنفس، فدفع راية إلى أبي أيوب الأنصاري وسماها راية الأمان، ونادى مناديه في قبال الخوارج من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن لم يستعرض، ولم يَقتُل، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن.

وانضوى من الخوارج إلى راية الأمان قوم شككوا في محاربتهم علياً (ع) ولم تتضح لهم نية في حربه، كما ترك المعركة إلى الكوفة والمدائن وغيرهما من البلدان قوم آخرون، وانضم قسم قليل عدده منهم إلى علي (ع).

بقي الخوارج بعد ان تفرق من تفرق عنهم فيما دون[1] الثلاثة آلاف، أبوا إلا التحاكم إلى السيف، فكرروا نداءهم بالرواح إلى الجنة وهجموا على جيش علي (ع) ، بل هجموا على الموت، والفناء يطلبونهما بجرأة نادرة.

وهناك دارت رحى معركة رهيبة لم تدم إلا سويعات أظهر فيها الخوارج من صنوف الصبر والبطولة العجب وسقطوا كلهم صرعى لم ينج ممن حارب منهم إلا دون العشرة فكأنهم قيل لهم موتوا، فماتوا.

وفتش علي بن القتلى على ذي الثوية ـ أحد عظمائهم ـ وكان علامتهم الذي به عرفوا عند المسلمين لاخبار شريفة وردت في حقهم من صاحب الشريعة ، كما ورد[2] عن صاحب الشريعة، بطريق عن أم المؤمنين عائشة وبطرق أُخرى

---

(١) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٧٤ ، والطبري، ج ٤ ، ص ٦٤ ، والكامل للمبرد، ج ٢ ، ص ١٤٩، والأخبار الطوال، ص ١٩٦ .

(٢) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٠٢.

غيرها أنهم شر الخلق والخليقة، بقتلهم خير الخلف والخليفة، وأقربهم من الله وسيلة، وكان عدد القتلى من جيش علي (ع) ضئيلاً جداً لم يتجاوز العشرة قتلى[1].

وأبى علي (ع) على أصحابه دفن الخوارج[2] بينما دفن علي (ع) من حاربه من أصحاب الجمل، أو ليس ذلك لأن هؤلاء ابتدعوا في الدين بما أخرجهم عن جادته بنظر أمير المؤمنين وبنظر جميع المسلمين آنذاك، وليس كذلك أصحاب الجمل فإنهم لم يبتدعوا في الدين بدعة، وإنما كان هدف رؤسائهم التملك والسلطة وباقي الجيش من الرعاع اتباع كل ناعق بلا تدبر أو تفكير، أو أعمال رأي وعقل.

وبذلك انتهت هذه المعركة الرهيبة، التي لم تقضِ على الخوارج فحسب، بل أذكت في نفوسهم روح الثورة، والتمرد فكان لهم أمثالها الكثير والكثير، إلى أواسط أيام العباسيين، بل أواخر أيامهم، حيث استكانوا يومئذ إلى الهدوء والراحة مكتفين بالثورة الفكرية، والمعارضة السلبية.

هذه دراسة موجزة عرضنا فيها قيام حركة الخوارج منذ مبدئها إلى يوم واقعة النهروان.

---

(١) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٧٦ ، والطبري، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٢) ابن الأثير، ج ٣ ، ص ١٧٦ .

الفصل الثاني

أسباب الثورة ودوافعها

من هم الخوارج؟ ما هي أسباب ثورتهم، وما هي دوافعها؟ ومن هم محركوها؟

قدمنا في الفصل الأول في كلامنا عن هذه الثورة السؤال الأول، ولم نجب عنه إلا جواباً موجزاً يتعلق باللغة وفنها، لأن محل السؤال والجواب حقيقة هو هذا الفصل.

وقبل المباشرة بالحديث، لا بد لنا من البحث عن بعض محركي الثورة لمسيس الحاجة لمعرفة الجواب عن السؤالين الأولين.

الأشعث بن قيس:

رأس من رؤوس النفاق، وأرضة[1] دأبت على أن تنخر جسم الدين الإسلامي، والمجتمع الإنساني، ونفس فاسدة مفسدة، يسوؤها صلاح مجتمعها

(١) الارضة : العثة.

فتسعى لتفتيته جاهدة، وعضو سيء في جيش علي (ع) نخره حتى تركه منحل القوى، لا يثبت للعواصف، ولا يصمد للهزات.

أسلم الرجل[1] في عهد رسول الله ﷺ، ووفد عليه فيمن وفد، ثم ارتد بعد وفاته ﷺ وآمن بنبوة سجاح وكان يؤذن لها مع غيره فحاربه عامل أبي بكر حتى لاذ خوف السيف لحكم أبي بكر فأمنه أبو بكر بعد أن أسلم وزوَّجَه أخته أم فروة، وقد ندم أبو بكر ساعة احتضاره على العفو عنه فقال[2]: (وددت أني يوم أُتيت بالأشعث كنت ضربت عنقه، فإنه يخيل إليَّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه.

وكان يلقب في قومه بـ (عُرف النار) وهذا اللقب كناية عن الغدر. وقد لقبه قومه بذلك بعد أن ارتد[3] بهم ثم غدر بهم فأسلمهم للقتل.

فإذاً لقد وافق اللقب المسمى وطابقه وبالطبع فإن الخليفة الأول لم يلق بحكمه جزافاً في هذا الرجل، وإنما كان حكمه عليه نتيجة درس، وبحث، وتفهم لهذه النفسية القلقة؛ ولقد أراد علي (ع) أثناء خلافته كما يحدثنا الدينوري[4] أن يعزل الأشعث بن قيس عن رئاسة كندة ويوليها حجر بن عدي، وكلاهما من ولد الحرث بن عمرو الملقب بآكل المرار، فأبى حجر أن يتولى رئاسة عشيرته والأشعث حي.

---

(١) المعارف لابن قتيبة، اليعقوبي ج٢، ص ١٠٧ .

(٢) شرح النهج، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، وابن الأثير، ج ٢ ، ص ٢٦٠.

(٣) ابن الأثير، ج ٢ ، ص ٢٦٠.

(٤) الأخبار الطوال، ص ٢٠٥ .

وشاء علي عزله إذ اقتضت مصلحة المسلمين ذلك وقد عزل قبلاً عمرُ بن الخطاب خالد بن معمر[1] عن رئاسة بكر وجعلها لشقيق بن مجزأة بن ثور، لمصلحة اقتضت، إذ على الإمام أن ينظر في جميع مصالح المسلمين.

ولماذا أراد علي (ع) عزل الأشعث؟ أليس لأنه فهم من دراسته لنفسيته ما فهمه الخليفة الأول أبو بكر من أن الأشعث لا يرى شراً إلا أعان عليه، ويا ليت علياً حيث لم يقبل حجرٌ بتولي إمرة كندة والأشعث حياً، جعل الأمرة لثالث وانتزعها من رأس الفساد إذاً لكُفي المسلمون شراً كثيراً [2].

بل يحدثنا التاريخ أن للأشعث[3] إصبعاً في المؤامرة التي حيكت لقتل علي (ع) واغتياله.

وكان الأشعث أول من بادر[4] يوم رفع المصاحف إلى إعلان العصيان على أمير المؤمنين، والمطالبة بإيقاف الحرب، وإقرار الهدنة، بعد أن أوشك جيش الأمويين أن ينهزم، فكان السبب في إفلات فرصة نصر جيش العراق على معاوية وأهل الشام، بل يحدثنا الدينوري في أخباره الطوال أن الأشعث كان يثبط قومه عن الحرب قبل أن يلوذ اهل الشام بالمصاحف، ويقول لهم إنه لبوار العرب إن دامت الحرب، وضيعة الحرمات.

وأوصلت الجواسيس إلى معاوية كلام الأشعث، فشجعته على الحيلة والخديعة وربما كان كلام الأشعث هو الذي فتح عليه وعلى صاحبه ابن العاص

(١) سياسة الخلفاء الراشدين في الموازين النفسية، ص ١٢١.

(٢) (٣) نفس المصدر السابق.

(٤) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٢٧، والأخبار الطوال، ص ١٧٦ .

تلك الحيلة، ولعله كان بين الأشعث ومعاوية اتفاق؟ من يدري؟ والأشعث هو الذي أبى على علي (ع) أن[1] يجعل حُكّم أهل العراق لأحد الرجلين إما عبد الله بن عباس، وإما مالك الأشتر النخعي، وقال لعلي: وهل سعر هذه الحرب إلا الأشتر وهل نحن إلا في حكم الأشتر، والأشعث هو الذي أبى إلا أن يكون حَكَمُ أهل العراق أبا موسى الأشعري.

وبعد فالأشعث من ملوك كندة، ومن أكابر سادة اليمن وهو بقدرته على إثارة العصبيات القبلية، والنعرات العشائرة، كان يمكنه أن يكيّف سياسة عشائر اليمن المترابطة مع أختها كندة بكثير من روابط الجوار والأحلاف والدم، كيف شاء، بل كان يمكنه أن يكيّف سياسة الإمام (ع) وجيش العراق على ما يهوى ويريد إذ أن الكثير من قبائل جيش علي (ع) من القبائل اليمنية، فضلاً عن قبائل ربيعة وحلفها المشهور مع قبائل اليمن ضد مضر؛ وهو بهذه الزعامة استطاع أن يكيّف سياسة الجيش العراقي، وأن يكره علياً على ما لا يريد، فلو أطاع حجرٌ علياً وتولى رئاسة كندة لحد الكثير من نفوذه، بحيث لا يبقى له من نفوذ إلا في حدود شخصيته الذاتية، ولكان قطع دابر شره وبتر عضواً فاسداً كان يجب اقتلاعه وجذه كما قال الخليفة الأول.

وكان أمير المؤمنين (ع) عزله عن أذربيجان، واستقدمه[2] إليه، ليراقبه عن كثب لما يعلم ما يكمن في تلك النفس من شرور.

---

(١) الأخبار الطوال، ص ١٧٩ .

(٢) سياسة الخلفاء الراشدين، ص ١٢٠ .

فالأشعث شخصية متلونة متقلبة، متحفزة لكل شر، دخلت الإسلام فلم تهضم مبادئه القويمة، ولم تستسغ منهله العذب الصافي، بل هو كبعض الحشرات التي لا تعيش إلا في الماء العكر، أو القذارات، وبذلك اتضح أن الأشعث هو الذي بذر بذرة الخوارج بأعماله وتقلباته، وتحكماته عىى امامه، وإجباره وإكراهه على ارتكاب خلاف ما فيه المصلحة، واستناداً إلى ما تقدم يمكننا القول بأن الأشعث هو أول رؤوس الخوارج، وأعظم أركانهم، وإن كان قد تظاهر بعداوتهم أو محاربتهم، وإن كان الخوارج لا يثقون به، ولا يركنون إلى غدره، وشروره، وربما اكتشفوا أن سبب كفرهم بقبول التحكيم ـ كما زعموا ـ كان سببه الأشعث، فلم يعودوا إلى الإطمئنان إليه بعد توبتهم حسب زعمهم.

شبث بن ربعي :

وهذا عضو آخر فاسد في جيش أمير المؤمنين (ع) ، له مكانته، وزعامته، فهو رئيس قومه بني رياح، وهو رفيق الأشعث في غدراته وفجرانه، وإفساد جند العراق على أمير المؤمنين (ع)، ارتد[1] عن الإسلام في عهد الخليفة الأول وناصر سجاح المتنبئة، وكان لها مؤذناً في جيشها، وهو الذي اعترض على سجاح حين تزوجت بمسيلمة المتنبيء الكذاب بدون مهر فلم يتركها حتى رجعت تطلب من مسيلمة صداقها، فوضع عنهم مسيلمة صلاة العشاء وصلاة الصبح وهو كامل مهرها، وقيل إنه[2] وضع عنهم صلاة العصر كمهر لها، ثم لاذ بالإسلام خوف

(١) الطبري، ج ٢ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

(٢) الفخري ، ص ٥٤ .

سيف ابن الوليد، وأظنه لم يصلِّ بعدها أبداً، وإن صلى فبجسمه لا بقلبه وروحه وكانت آخرته أن كاتب الحسين (ع) [1] يمنيه النصرة والجهاد بين يديه، وكان أول من غدر ونكث، ثم خرج إليه يحاربه، وقد ذكره الحسين (ع) يوم الطف في كتابته له ودعوته إياه لينصره ويقتل نفسه دونه كما زعم.

وإن رجلاً لأوله ارتداد وكفرة، وآخرته غدرة ونكثة وفجرة، لجدير أن تكون وسطى حياته مملوءة بالشرور والانتكاث، والتوثب على كل ما هو خير.

فنفس شبث نفس قلقة متلونة، تراه تارة يصر على قبول التحكيم، ثم ينحاز إلى الخوارج، ثم يدعهم ويحاربهم، وتراه يدعو الحسين لكي ينصره ثم ينكث، ويخرج إليه فيحاربه، ويعمل على قتله.

وقلما نرى رجلاً ارتد عن الإسلام في عهد الرسول ﷺ أو في عهد أبي بكر إلا وترى نفسه قلقة، متلونة، لا تستقر على حال ومن هؤلاء كان عطارد بن حاجب[2] التميمي أحد قتلة الحسين (ع).

هذه أمثولة لبعض محركي ثورة الخوارج، وموقدي نارها، ومفرقي الكلمة.

من هم الخوارج :

والخوارج كما عرفت هم القراء من جيش أمير المؤمنين[3] يوم صفين وهم الذين أجبروه على التحكيم، ثم أنكروا عليه قبوله تحكيم الرجال في دين الله وكان شعارهم (لا حكم إلا لله) وكفروا من خالفهم من جميع الفرق الإسلامية، وترضوا

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٧ .

(٢) الطبري، ج ٢ ، ص ٥٠٠.

(٣) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٥ - ١٧٦.

على أبي بكر وعمر وكفروا عثماناً وعلياً وكفروا الحكمين عمرو بـن العـاص وأبـا موسى الأشعري وكل من جوز تحكيـم الرجـال في ديـن الله، وطعنـوا في أصحـاب الجمل وأصحاب صفين من الفريقين؛ وقرروا أن الخلافة لا يجب حصرها في قريـش بل تجوز في جميع المسلمين ولو لم يكن عربياً، بل شرطه أن يتفق عليه المسلمون وأن يكون آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر، بل قـالوا إنـه يجـوز أن لا يكـون في العـالم إماماً أو خليفة مطلقاً، إذا عمل كل إنسان بما عليه من واجب فلم يظلـم غـيره، ولم يتعد على سـواه، وإنمـا الحاجـة تمـس إلى نصـب الخليفـة لـردع الظـالم عـن ظلمـه، وإيصال المظلوم إلى حقه، فإن احتيج إلى خليفة يحفـظ الثغـور ويمنـع الظلـم والجـور ويدع الأمن مستتباً فيجوز أن يكون عبـداً أو حـراً، عربيـاً أو أعجميـاً وعلـى هـذا بايعوا[1] قطري بن الفجاءة المازني وسموه بأمير المؤمنين.

ويذكر الشهرستاني[2] بعض رؤسائهم فيقول: وكان أشدهم خروجاً على امير المؤمنين علي (ع) وحروفاً من الدين الأشعث بـن قيـس، ومسـعر بـن فدكـي، التميمـي، وزيـد بـن حصـن الطـائي، وعبـد الله بـن الكـوا، وعتـاب بـن الأعـور، وعبد الله بن وهب الراسبي، وعروة بن حدير - وهو المعروف بعروة بن ادبـة وهـي أمه، ويزيد بن عاصم المحاربي، وحرقوص بن زهير المعروف بذي الثدية.

وقد ورد في شأن الخوارج مـن أخبـار شـريفةٍ عـن رسـول الله ﷺ الكثير حتى عرفهم بها عامة المسلمين لما خرجوا.

منها لما اعترضه ذو الحويصرة التميمي يوم تقسيم غنائم[3] هوازن فقال :

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٢) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٣ .

سيخرج من ضئضئي هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

ومنها: ما ورد مما تقدم عن أم المؤمنين عائشة في حقهم من أنهم شر الخلق والخليقة.

ومنها: ما ورد[1] عن علي (ع) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، قولهم من خير أقوال البرية، صلاتهم أكثر من صلاتكم، وقراءتهم أكثر من قراءتكم، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم — أو قال - حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فاقتلوهم، فإن قتلهم أجرٌ لمن قتلهم يوم القيامة.

هذا قليل من كثير، من الأخبار الواردة في حق الخوارج عن صاحب الشريعة ﷺ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد.

ولا يتوهم متوهم أن المقصود في كلام الرسول غيرهم لقوله في آخر الزمان، لأن المقصود آخر زمان الصحابة، يدلك على ذلك قوله صلاتهم خير من صلاتكم، وإذا لم يروهم كيف يعرفون أن صلاة الخوارج، وأقوالهم، خير من صلاة الصحابة وأقوالهم، وإذا لم يدركهم بعض الصحابة كيف يصح الأمر بصيغة توجه إلى مخاطب، ولو كان المقصود غيرهم في زمان لا يدركه بعض الصحابة لكان حق توجيه الأمر من صاحب الشريعة ﷺ بصيغة الغائب.

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

أسباب ثورتهم:

كان الأشعث رأساً من رؤوس مثيري الفتنة، وأول من دعا إلى إيقاف الحرب بين جيش العراق وجيش الشام، بعد أن وصلت لقمة الفتح إلى أفواه الجيش العراقي فانتزعها منهم الأشعث، لا حباً بمعاوية، وساند الخوارج لاحبابهم، ولا عقيدة بصحة مبدئهم، وعدالة قضيتهم، وإنما لأنه يسوؤه أن يرى شراً فلا يدعو إليه كما قال الخليفة الأول.

ونفهم كما يفهم كل إنسان أن الدعوة إلى إيقاف الحرب، والمناداة بإجابة دعوة الجيش المنهزم حال هزيمته الكبرى، إنما يراد تفتيت القوى المنتصرة، وتمزيق صفوفها، والقضاء على وحدة الصف فيها، وإيجاد البلبلة بين أفرادها وإفقادهم الثقة في أميرهم أولاً، وفي أنفسهم ثانياً، وإعطاء العدو المنهزم فرصة تمكنه من تثبيت قدمه، ومعاودة الكرة.

وبالجملة فإن الأشعث قصد بدعوته إلى قبول الهدنة، وإيقاف الحرب إلى إحداث فرقة في جيش علي يمكن لمعاوية ولجيش أهل الشام المرور منها، ويدلك على هذا قوله قبل رفع المصاحف لأصحابه[1] (إنه لبوار العرب إن دامت الحرب، وَضَيعةُ الحرمات).

أليست منه هذه الكلمة تثبيطاً منه لهمم جيش كان من النصر قاب قوسين، واليست هذه منه دعوة صريحة إلى الموادعة والمهادنة، وأليست هذه الكلمة لإحداث انشقاق في جيش قد عضته الحرب وإن كان وصل إلى قمة النصر، أو كاد.

(١) الأخبار الطوال، ص ١٧٦ .

ولمن يعمل الأشعث على انشقاق جيش العـراق، وتفتيـت قـواه، وتفويـت فرصة النصر من يده، يقول في الأخبار الطـوال: إن جواسـيس معاويـة حملـت إليـه كلمات الأشعث، فسره ذلك منه، وفي اليوم الثاني أمر برفع المصاحف.

لقائل أن يقـول إن هنـاك أمـراً مبيتـاً بـين معاويـة والأشـعث، وقـد يكـون الأشعث قد خان إمامه، لا حباً بمعاوية، بل حباً بالشر.

فإذاً أول ما يطالعنا من اسباب ثورة الخـوارج هـو تفتيـت القـوى المظفـرة المنتصرة، والقضاء على هذا النصر الـذي لم يكـن إلا ببـذل ألـوف الأنفـس في أيـام طويلة من جهاد وإيمان وإخلاص، ببضع ساعات من خيانة ونفاق، وبذلك ضـاعت الفرصة، و لم ترجع.

أسباب ثورتهم.

إن حملة الإيمان قسمان، قسم يكون حملهم له عـن تفهـم لحقيقتـه، ووعـي وإدراك لمبادئه، وهؤلاء قلما تأثر فيهم شبهة من الشبهات، إذ أن كل شبهة تعـترض سبيلهم الديني، وطريقة اعتقادهم، إنما يدفعونها أو يحلونهـا، أو يخضعونهـا لمبـادئهم وشريعتهم، بما لديهم من تفهم صحيح، ووعي تام لمبادىء دينهم ومعتقدهم.

وقسم آخر يحمـل الإيمـان والعقيـدة بـلا تفهـم لواقـع دينهـم، وبـلا وعـي لدساتيره وقوانينه ومن غير هضم فكري لهـا. وهـذا مـا رأينـاه ونـراه مـن الإخـوان الوهابيين.

ليس كل من ادّعى الإيمان هو مؤمن بالفعل، وأمثـال هـؤلاء مـن دخـل في الدين حديثاً و لم يتفهمه، و لم يعه، و لم يهضم مبادئه، كان أقرب إلى تقبـل الشـبهة،

بل اعتناقها، بل وجعلها كل الدين، وإخضع جميع مبادئه وقوانينه إليها.

وهذا ما كان من الخوارج، فإنهم كانوا عباداً غاية في العبادة، قراء للقرآن المجيد، كأكثر ما يكون المسلم قراءة لكتاب ربه، ولكنهم لم يعبدوا الله عن تفكر، و لم يقرأون القرآن عن تدبر، وقد قال الرسول ﷺ فيهم[1] وفي إيمانهم، إن إيمانهم لم يتجاوز تراقيهم أو حناجرهم.

فالخوارج كانوا مؤمنين بما لمعنى (المؤمن) عند العامي، وأما عند الخاصة وأصحاب العقول النيرة، والفهم والإدراك فهم عندهم مؤمنون من نوع آخر من الإيمان.

دخلت على الخوارج شبهة التحكيم ورأوا أن تحكيم علي ومعاوية الرجال في دين الله كفر ما بعده كفر تجب مجاهدتهما عليه.

ورأوا أنهم أنفسهم قد كفروا حين وافقوا علياً أو حين أجبروه على قبول التحكيم وأعلنوا أنهم تابوا من كفرهم، ولما كان علي (ع) لا يرى أن التحكيم كفر، بل ولا نفاق، وإنما يراه ضعف وخلاف المصلحة، فأعلنوا كفره، واستحلوا دمه ودم من تابعه في رأيه.

فالخوارج إذن كانوا طلاب حق أخطأوه، ولذا قال علي (ع)[2]: (لا

---

(١) تقدم في بعض الأخبار عن الرسول ﷺ .

(٢) شرح النهج، ج ١ ، ص ٤٤٧ .

تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه)، فعلي (ع) ـ كما اتضح من الفصل السابق ـ لم يقاتل الخوارج لشبهتهم، وإنما قاتلهم ليكف شر أذاهم عن المسلمين بعد أن خبطوا في الدين خبط عشواء فقتلوا المؤمن البر التقي، وأجبروا أحدهم على إرضاء شخص معاهد لأنه قتل له خنزيره، وأخافوا السبل، وأخلوا بالأمن، وقطعوا الطرق.

والخوارج لم يكفروا علياً لشيء غير التحكيم كما كفروا غيره للتحكيم ولغيره.

التحكيم:

والتحكيم عند المسلمين كافة ـ عدا الخوارج ـ جائز بل واجب في بعض الأحايين، لأنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وهذا من أسس الدين ـ وقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين الزوجة وزوجها عند حدوث شقاق بينهما، فكيف بأمر أمة محمد وعباد الله، وبالحقيقة إنما يحكّم المسلمون في مثل هذه القضايا كتاب الله وكلامه، وأوامره ، ونواهيه، وكان ولا بد أن يكون هناك ناطق بكتاب الله، ولو كان الحكم الذي يحكم به الحكمان من عندياتهما أو هكذا يشترط عليهما الفريقان المتخاصمان لأمكن القول بأن هذا التحكيم تحكيم الرجال في دين الله. ولم يدّعِ هذا أحد من المسلمين، وإنما اعتبروا في جميع الأدوار ومنها بعد صفين أن الحكمين ناطقان بكتاب الله ليس إلا! فإذا خالف الحكمان كتاب الله، وعملا بالعصبية، والهوى فما بال الآخرين؛ وقال الخوارج إنه لا يجوز التحكيم حتى ولو كان الحكمان ناطقين بكتاب الله، وكل من فعله فهو كافر.

كان التحكيم - لا حكم إلا لله - شعارهم، وبه كفروا من خالفهم من الأمة، واستحلوا دمه وعرضه وماله، لأنه كافر لم يدفع جزية، وليس بمهادن.

بل وكان التحكيم أساساً لاختلافهم في جواز قتل الأطفال والنساء[1] والعجزة لأن أطفال الكفار في رأيهم كفرة (رب لا تدع على الأرض من الكافرين دياراً، إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا كافراً فجاراً)، بل أدى[2] ذلك بهم إلى كثير من البدع التي أدخلوها في الإسلام.

هذان سببان وإن اختلفا هما اللذان دفعا إلى الثورة، وكما ذكرنا كان أحد السببين زعيم كبير له من إمكانيته الكثيرة لتكييف سياسة الجيش الذي ينتمي إليه، اتسمت نفسه بسمة الشر منذ اليوم الأول الذي رفعت فيه الثورة رأسها، بل كان هو موجد هذا اليوم، وثاني السببين هو شبهة دخلت على نفوس قوم لم تعرف من الدين الإسلامي واقعيته، وجوهره، وإنما عرفته بثوبه الظاهر، وهناك سبب ثالث وقد يعده بعضهم من النتائج.

الخوارج والخلافة:

رأى الخوارج أنه لا يجب حصر الخلافة في جميع أفراد الأمة العربية فحسب، بل يجب أن تشمل جميع أفراد الأمة الإسلامية بشرطي احتياج الأمة الإسلامية إلى خليفة، وكون الخليفة المرشح جامعاً للشرائط المعتبرة، من الإيمان والعدالة والثورة على الظلم ومحاربة الجور والفساد وأنكارهما باليد واللسان، وقد

---

(١) الملل والنحل، ج ١، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) ربما عرضنا في الفصل الثالث إلى عرض بعض بدعهم.

نشأت فكرة عدم حصر الخلافة يوم الاجتماع العام وخلال تأميرهم عبد الله بن وهب عليهم قبل النهروان، وتبلورت بعدها: حيث نادى الخوارج بكثير من أمرائهم بإمرة المؤمنين، وبايعوهم على الخلافة كقطري[١] بن الفجاءة، والزبير بن علي، وشبيب بن يزيد الشيباني وابن عبد ربه الصغير وغيرهم، وكلهم ليس من قريش وقد قال شاعرهم بعد ذلك بزمن طويل يمدح بعض أمراء المؤمنين[٢] فيهم:

أمير المؤمنين على رشاد وخير هداية نعم الأمير
أمير يفضل الأمراء طراً كما فضل السها الفجرُ المنير

وهذا ما جذب إليهم الكثير والكثير من الموالي فناصروهم وجاهدوا[٣] معهم، واعتنقوا مذهبهم، في الطور الثاني من ثورة الخوارج أعني بعد واقعة النهروان، ولقد رأى الموالي في مذهب الخوارج متنفساً لهم وظنوا أنهم يصلون إلى مقاليد الحكم عن طريقتهم فيما لو انتصر هؤلاء على جيوش الإسلام، يضاف إلى ذلك أن مقام الخوارج هو الأهواز وكرمان وأصبهان والري وغيرها من بلاد فارس[٤]، فكان سهلا هينا على كل مولى وفارسي يريد الالتحاق بهم[٥] كما تبعهم كثير من المجوس الذين أسلموا.

وطبيعي جداً أن يلتحق الموالي وغيرهم من سائر الطوائف غير العرب بالخوارج إذ رأوا أن هذا المذهب الجديد يساويهم بأي فرد من العرب من دون

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ إلى ص ٤٠٩.
(٢) الملل والنحل، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
(٣) شرح النهج، ج ١ ، ص ٣٨٦ - ٤٠٣ .
(٤) شرح النهج، ج ١ ، ص ٣٩١ .
(٥) شرح النهج، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

اشتراط عروبته، هذا في الخلافة والإمارة فكيف بما هو أقل منها شأناً، وأحط رتبةً.

الإسلام والخلافة :

عرفت أن المسلمين ـ ما عدا الخوارج ـ بجميع فرقهم يرون الخلافة في قريش سواء في ذلك الشيعة أو السنة والزيدية والإسماعيلية وغيرهم من بقية الفرق، وعرفت أن الخوارج عمموا الخلافة إلى كل مسلم تمّتْ فيه الشروط ـ ما عدا شرط الانتساب والقومية، ولكن الفارق بين الشيعة الإمامية وغيرهم من سائر الفرق أن الشيعة وافقت بقية الفرق الإسلامية على جعل الخلافة في قريش، ولكنها زادت على بقية الفرق شرطين: الأول كون الخلافة في علي ثم في ابنه الحسن ثم في ابنه الحسين ثم في ذرية الحسين، والشرط الثاني أنها حددت عدد الأئمة من قريش ومن بني هاشم أو بأبناء الحسين (ع) على الخصوص باثني عشر خليفة، وهذا التحديد لم يكن عند غير الشيعة الإمامية، وإن ردوا أن عدد الخلفاء هو ما ذكره الإمامية.

والإسلام دين الديمقراطية الصحيحة، ونظرته إلى كل فرد من أفراده أو إكباره له، لما يقدمه من خدمات جليلة لمجتمعه ولدينه، لا لأنه شريف الأصل رفيع النسب، وقد قرر الله تعالى على عباده ذلك (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال الرسول ﷺ : " المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى في ذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم"، وهنا تكمن عظمة الإسلام في العدالة والمساواة ولقد قال عمر بن

الخطاب لما ضربه أبو لؤلؤة كما اشتهر عنه: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته.

ولعل الخوارج عمموا الخلافة لغير العربي استناداً لما ورد عن الخليفة الثاني، وواضح جداً في أن سالماً لم يكن عربي النجار بل كان من الموالي، وإذا صح هذا الخبر عن الخليفة الثاني، فإنه يدل على أن ما روي من أن الخلافة في قريش، لم يكن معمولاً به ، أو كان متساهلاً فيه على الأقل.

أما الشيعة الإمامية فإنها حصرت الخلافة في اثني عشر إماماً من ولد علي (ع)، و لم تنص على الإمامة بعد الثاني عشر منهم، ومن شروط الإمامة عندهم أن يكون الإمام أعلم الخلق، وأشجعهم، وأكرمهم، وأعملهم بالحق، وأهداهم إلى طرق الرشاد، والغاية اشتراط العصمة في الأئمة الإثني عشر، أنه أريد للإسلام حكم ديمقراطي يترأسه فرد يراعي مصلحة شعبه بل مصلحة أي فرد من شعبه قبل أن ينظر إلى مصلحته أو يفكر فيها، وتحديد الإمامة باثني عشر إماماً يعتبر كافياً لتربية الشعب وتهيئته تهيئة صالحة للحكم الديمقراطي الانتخابي، وانتخاب رئيسه بنفسه مباشرة، إذ من الإضرار بالشعب إعطاءه حق انتخاب رئيسه، وهو ــ الشعب ــ لم يتهيء بعد لذلك، وخاصة في أمة اعتادت على الحكم الفردي الدكتاتوري في جميع أزمان جاهليتها.

وطريقة انتخاب الرئيس من الشعب مباشرة إذا لم يكن الشعب على استعداد و لم يكن قد هيىء لذلك لا يعطي النتيجة المرغوبة، بل قد يعطي النتيجة العكسية التي تكون أضر على الشعب من الحكم الفردي الدكتاتوري، على أنا نرى

في عصرنا هذا عصر النور والكهرباء والذرة، عصر اليقظة الفكرية، وعصر ثورة الكرامة النفسية نرى أن الانتخابات النيابية في البلاد المتمدنة في عصرنا الحاضر لا تسير على ضوء الديمقراطية الصحيحة، بل لنا أن نقول إن في كثير من هذه الانتخابات أن ليس للشعب فيها يد ولا يبدىء فيها ولا يعيد.

هذا في عصرنا الحاضر فكيف الحال في عصر قد سيطرت فيه النعرات العصبية، والعصبيات القبلية، والجهل بقيمة الشعب، ومقدرته.

فإذاً لا بد من تربية الشعب تربية صالحة وتهيئته تهيئة قويمة للسير على طريق الديمقراطية الصحيحة؛ وهو بنظر الشيعة الإمامية إنما يكون بحكم هو فردي من جهة، ديمقراطي من جهة أخرى فردي حيث أن الحاكم فرد لم يكن للشعب دخل في انتخابه وإيصاله إلى كرسي الحكم، وديمقراطي حيث أن الحاكم لا يستغل مركزه فيتصرف وكأنه ليس في الدولة سواه أو كأن الدولة بستان له، بل حاكم فرد لا يرى أن له فضلاً على بقية المسلمين كما كان علي والحسن في أيام خلافتهما القصيرة.

وبهذا الرأي تلتقي آراء الشيعة الإمامية لما قلنا، وآراء أهل السنة لتشكيك الخليفة الثاني في كون الخلافة حق لقريش، وآراء الخوارج في تعميم هذا الحق.

فإذاً ليس هناك اختلاف إلا في أن الخوارج سابقوا الزمن في إعطاء حق انتخاب الشعب لحاكمه قبل أن يتهيء هذا الشعب لمثل ممارسة هذا الحق العظيم.



الفصل الثالث

أ ـ نتائج الثورة

كان شعار الخوارج في بداية ثورتهم ـ لا حكم إلا لله ـ فمنعوا جواز إقامة ناطق بالقرآن يكون حكماً بين فئتين اختلفتا؛ فخالفوا بذلك القرآن المجيد حيث يقول الله عز وجل في التحكيم بين الرجل وزوجته إن وقع الخلاف بينهما: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾[1]، وإن جاز التحكيم أو وجب في الأمر البسيط، فإنه يجوز، أو يجب في ما هو أكبر منه وأهم بطريق أولى، لوجوب الاهتمام به أكثر، كما قد خالفوا سنة الرسول ﷺ وقد قرر التحكيم يوم[2] صلح الحديبية فكان هو ممثل المسلمين، وكان سهيل بن عمرو القرشي ممثل كفار قريش، ومثل هذا التحكيم كان مما اتفقت عليه العقول والعقلاء، فالخوارج بإنكارهم للتحكيم مخالفون حتى لعقولهم أنفسهم، ولقد قر أن الإسلام إنما يعتبر هذا الحكم

---

(١) سورة النساء، آية ٣٤ .

(٢) سيرة بن هشام، ج ٣ ، ص ٣٦٦ .

ناطق عن القرآن، وعلى الأخص يوم صفين، وقد عرفت ما أُخذ على الحكمين من العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، لا أن يحكما بين الفريقين من عندياتهما حتى يكون تحكيم للرجال في دين الله سبحانه.

وإذا خالف الحكمان ما شرطاه على أنفسهما، وخالفا ما شرطه المسلمون عليهما وحكما بالهوى والعصبية، ومن عندياتهما فما ذنب غيرهما وقد احتاط لنفسه ولكافة صحبه من المسلمين ومن يجري وينفذ في حقهم حكم الحكمين.

ولم تكن واقعة النهروان خاتمة المطاف في ثورة الخوارج، سواء منها الحربية أو الفكرية والجدلية، بل كانت واقعة النهروان في الحقيقة هي بداية طريقهم الشاق الطويل، ولم تستأصلهم واقعة النهروان التي سقط الكثير منهم قتلى فيها بل زادتهم اندفاعاً، وحماسة لمذهبهم الجديد، ومجاهدة كل من لا يدين به من سائر الأمة الإسلامية، إلى أن أهلكتهم الثورات وقللت من عددهم كثرة الانتفاضات التي قاموا بها، على الحكام الأمويين، وعلى العباسيين من بعدهم. وقد حاربهم الأمويون والعباسيون، وقتلوهم أشد قتل، حتى فل حدهم، ولانت قناتهم، وانهار مجدهم الحربي، وأدى بهم الحال[1] إلى أن أصبحوا بعد المتوكل العباسي قطاع طرق، ولصوص ليل، يفسدون في الأرض ولا يصلحون، بعد أن أزعجوا بلاد الإسلام والمشرق وأوهنوا قوى دولهما، وفتكوا بالعديد الذي لا يحصى من جيوشها، بل كادوا أن يرثوا الأمويين في ملكهم ومجدهم.

---

(١) شرح النهج، ج ١، ص ٤٤٥.

وهكذا كل فكرة وكل مبدأ، وكل مذهب، يكبر، ويثبت، وينتشر إذا وجد من يرعاه ويحافظ عليه، بقوتي السيف والقلم.

فالفداء والتضحية بالدم والمال، وبذل الجماجم، والسواعد، هي الأشياء التي يثبت بها أي مبدأ أو فكرة، ولو كان في أكثر الأحيان غير صحيح أو غير موافق لطبيعة المجتمع الذي عاش فيه، وليس بعد الشيعة أبذل لدم في سبيل مبدأ من الخوارج طيلة قرنين من الزمان أعني من سنة ٣٧ إلى أواسط القرن الثالث للهجرة.

ب ـ نتائج الثورة
(ثورات الخوارج بعد يوم النهروان)

لا! لم تخمد ثورة الخوارج بعد يوم النهروان، و لم تطفىء شعلتها، بل زادتها المعركة اشتعالاً، وشدة، والتهابا، سواء في ذلك المعارك الحربية، أو الثورات الفكرية، والمناقشات المذهبية، مدى قرنين من الزمن، حيث عادت تلك البسالة في النضال، والاستهانة بالموت في سبيل مبدأ[1] إلى لصوصية، وقطع طرق وإفساد في الأرض، فخمدت فيهم تلك الشعلة، وماتت فيهم تلك البسالة، وحتى صاروا بعد الخليفة المتوكل العباسي أهون فرقة، وأقل خطراً على الخلافة بل أصبحت الثورة لا يؤبه لها من قريب أو بعيد.

ولكل ثورة نتائجها الحتمية، إما القريبة أو البعيدة المدى حسب استمرار معتنقيها أو على الأصح، حسب استمرارها ذاتها في الوجود، وحسب الأسباب والدوافع التي أولدتها وأججت نيرانها.

وهكذا فقد كان لثورة الخوارج نتائجها الحتمية التي انبثقت عن شعارهم

(١) شرح النهج ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(لا حكم إلا لله) وانبثقت عن صلابتهم في الدين، وعن عدم تفهمهم له تفهماً واعياً، يسلك بهم أوسط السبل، ويؤمنهم من الانحرافات.

وتتلخص نتائج ثورة الخوارج على علي (ع) في أمور نذكرها بإجمال، لأن تفصيل كل منها يحتاج إلى كتاب.

ثوراتهم:

وأول ما يطالعنا من هذه النتائج ثوراتهم المتعددة التي زعزعوا بها كيان الدولة الأموية، وكانوا ثاني إزميل في نعشها بعد ثورة الحسين الشهيد وكان كل خارجي، هو بحق أشجع من ذي لُبدة في الدفاع عن مبدئه، وعقيدته، وليس أدل على ذلك من ذلك الخارجي الذي طعن في صدره برمح، فنفذ الرمح إلى ظهره، فجعل يسعى الخارجي إلى قاتله وهو يقول[1] : "وعجلت إليك ربي لترضى" وليس أدل على ذلك أيضاً من خروج الفئات القليلة منهم، وقد لا تبلغ المائة رجل فتقابل الجيوش الإسلامية الكثيرة، الوافرة، المدربة على خوض معمعان الحرب وكثيراً ما ما ووجهت جيوش الروم والترك؛ تتصدى لها الفئة من الخوارج القليلة من الخوارج فتنتصف منها وربما تهزمها شر هزيمة.

وأهم ثوراتهم بعد يوم النهروان ثورة نافع بن الأزرق رأس الأزارقة من الخوارج.

ربما كانت ثورة نافع[2] أشد ثورات الخوارج، فقد بلغ أفراد جيشه عشرين ألف محارب في بعض أيامهم.

(١) العقد الفريد، ج ١ ، ص ٢٢٣ .
(٢) عن الفرق بين الفرق، ص ٥١ .

طمع نافع في عبد الله بن الزبير في أن يكون من أتباعه، ووعده النصرة بل جاهد بين يديه باتباعه، ودافع عنه أهل الشام الذين أتوا يحاصرون مكة بقيادة الحصين بن نمير. فحارب الخوارج أشد حرب، وقد أبلوا في الدفاع عن بيت الله أحسن البلاء، ثم رأوا أن يصارحهم[1] ابن الزبير بمذهبه فإما أن يكونوا له أثبت جند، وأخلص أعوان، وإما أن يكون أشد أعدائه حرباً عليه، وكان ابن الزبير قد أمن نوعاً من أمان بموت يزيد ورجوع حصين بن نمير بجنده إلى الشام فصارحهم برأيه وترضى على عثمان، وأشاد بذكره.

ولما شعر الخوارج بمذهبه تركوه وغادروه، ونووا محاربته، وكانوا أشد أعدائه اجتهاداً في حربه، وسيفاً مصلتاً دائماً على واليه على العراق.

استولى الخوارج على الأهواز، وما وراءها من بلاد العجم من كرمان وغيرها، فجبوا خراجها، وأقدم بعضهم على قتل الرجال والنساء والأطفال، وبهذا السبب وقع الخلاف بين رؤسائهم من نافع بن الأزرق، وعبد الله بن صفار، وعبد الله بن يزيد بن أباض فأحل نافع قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وحرمه بن حفار، وبرىء كل واحد من الآخر ونتج عن هذا الخلاف فرق الأزارقة والصفرية، والإباضية، ولكن مع هذا الانقسام بقي نافع محتفظاً بقوة ضخمة من الخوارج مخشية الجانب ؛ فزحف بهم نافع إلى البصرة، وهناك قابله جيش من البصرة بقيادة مسلم بن عبيس أرسله عبد الله بن الحارث بن نوفل والي ابن الزبير وعند اشتداد المعركة في وقعة دولاب قتل نافع بن الأزرق ومسلم بن عبيس فخلفهما

(١) ابن الأثير، ج ٤ ، ص ٦٩، والطبري، ج ٥ ، ص ١١٩.

عبد الله بن الماحوز على الخوارج والحجاج بن باب الحميري فتابعا القتال حتى قتل قائد ابن الزبير، وجاءت النجدات إلى الخوارج فهزموا جيش البصرة وفلوا حده.

واشتد الرعب بأهل البصرة خوفاً من الخوارج فأشاروا على ابن الزبير بتولية حربهم القائد الدرب المحنك الذي يعرف من أين يستلب النصر ساعة النصر، ويعرف كيف يحافظ على وحدة جيشه إذا لم تكن ساعة نصره، المهلب بن ابي صفرة الأزدي فجاهدهم أشد جهاد بقية مدة خلافة ابن الزبير، ودهراً طويلاً من خلافة عبد الملك بن مروان وقد قتل من الخوارج عدة من رؤسائهم وفي سنة ٧٧ انقسم الخوارج على أميرهم قطري بن الفجاءة[1] فتمكن المهلب من القضاء على فريق قطري وجيشه وكان الفريق الآخر بقيادة ابن عبد ربه الصغير أهون الفريقين على المهلب.

وهكذا انتهت أعظم ثوراتهم التي استقامت حوالي ستة عشر عاماً وبقيت ذيولها.

ثورة شبيب بن يزيد الشيباني[1] :

ثار شبيب في سنتي ٧٦ ـ ٧٧ ـ للهجرة، وهو الذي أشرنا إلى شجاعته، وكان مضرب الأمثال في الشجاعة، والبسالة، والدربة الحربية، والاستهانة بالموت في سبيل مبدئه، وعقيدته، وكان في قلة من أصحابه، لم يتجاوزوا المائتين عداً في أي معركة من المعارك.

(١) الطبري، ج ٥ ، ص ٥٠، إلى ص ١١٩ ، واليعقوبي، ج ٣ ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

كان شبيب جديراً بأن يقضي على الدولة الأموية ، ويرث ملكها الشاسع الأطراف، العريض الأرجاء. لو هيأت له الظروف جنداً أكثر عدداً من جنده تكون لهم بسالة أصحابه نفسها وصبرهم وإقدامهم.

وليس معنى ذلك أنه كان يمكنه والحال هذه أن يحتفظ بالعراق والمشرق، ويستخلصه من براثن الأمويين.

لكن قلة العدد المتناهية في الضآلة قلما تقوم للكثرة الهائلة، وإن انتصرت في زمان ما فإن نصرها لا بد وأن يكون موقوتاً.

وهذا ما كان من شبيب بن يزيد الذي أقضّ برجاله القلائل مضاجع الأمويين، ووالى على قادتهم الذين كان يوجههم جبار الولاة الحجاج بن يوسف الثقفي.

فكم من قائد من جيش الأمويين قُتل، وكم من جيش لهم فُل وهُزم أمام أولئك الثائرين القلائل، ولولا القدر، وانتهاء الأجل بسقوط شبيب في النهر (نهر دجيل)، حيث رست به درعه الحديدية فلم تمكنه من أن يطفو لأتى بالأعاجيب.

وهكذا مات شبيب الذي عجزت عن كسر شوكته وفل حده العديدُ من جيوش بني أمية بقيادة خيرة قوادها وأعاظم ولاتها، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف، مات شبيب غرقاً وأراح منه البلاد والعباد، ولنا أن نقول إن لله جنوداً منها الماء. لولا القدر وانتهاء الأجل لكان شبيب جديراً بأن يزعج الأمويين سنين طويلة.

ولقد زاد عدد الجيوش التي هزمها شبيب وفل حدها وقتل قادتها على العشرة جيوش فيهم أبطال الحرب، وفرسان المصر، الذين والوا الهزائم على الفرس والروم والترك والخزر. على أن عدد كل جيش من هذه الجيوش كان لا يقل عن الألف محارب بحال من الأحوال، وربما زاد على الخمسة آلاف مقاتل.

ثورة الضحاك بن قيس الشيباني الحروري[1] :

وهذه ثورة ثالثة عارمة ، كثيرة العدد، كاملة العُدة، قام بها صفرية الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني الحروري في العراق وما والاه من مدن فارس وسوريا.

ثاروا على مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية في سنتي ١٢٧، ١٢٨ للهجرة. وقد عظمت هذه الثورة واشتدت شوكتها، وعظم أوارها، وارتفع لهيبها، وقد ملكت الكوفة والحيرة، حتى كادت أن تستولي على العراق بشقيه.

ولقد انضم إليها الأمراء الأكابر من البيت الأموي، وقادته، انضموا إليها عسكرياً وسياسياً للقضاء على الخليفة الأموي، لا تديناً وعقيدة، منهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق للخليفة الأموي يزيد بن الوليد، انضم إلى الخوارج نكاية بابن عمه مروان بن محمد، وحقداً عليه، لأن هذا عزله عن ولاية العراق لما استخلف واستبدل به غيره من أمراء المضرية ـ النضر بن سعيد ـ ؛ كما انضم إلى الثورة منصور بن جمهور، أحد أكابر قواد الجيش الأموي وذلك موافقة لابن عمر، ومراغمة لمروان بن محمد، ولواليه النضر بن سعيد؛ كما انضم إلى هذه

(١) الطبري، ج ٥ ، ص ٦١٢ ، إلى آخر الكتاب. و ج ٦ ، ص ١٥ ، واليعقوبي، ج ٣ ، ص ٧٦ .

الثورة الخارجية سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي، بعد أن ثار على مروان بن محمد يطلب الخلافة، فلما هزمه مروان انضم لابن عمر وللخوارج بعدة من أهل بنيه.

وهكذا فلم تقتصر هذه الثورة على الخوارج فحسب وإن كان لونها ، وشعارها، هو لون الشراة وشعارهم، فقد انضم إليها كل غاضب على خلافة مروان، يراها غصباً واستلابا، وأكثر هؤلاء الذين التحقوا بالخوارج هم من اليمانية الغاضبين على مروان بن محمد نصير المضريين والذي ثار على يزيد بن الوليد نصير اليمانية.

سار مروان بجيوشه العديدة فالتقى بالخوارج في أرض نصيبين من الجزيرة في قرية يقال لها: كفرتونا، و لم يكن جيش الضحاك الحروري بالجيش القليل في عدده وعدته، بل كان قد بلغ المائة وعشرين ألف محارب، وكان قد استولى على أكثر العراق والموصل، وبلغ حكمه نصيبين وحران، وكاد أن يتوسط الجزيرة، وهناك في معركة حامية تمكن مروان من القضاء على هذه الثورة، وقتل قائدها، وقل جموعها، في سنة ١٢٨ للهجرة.

كانت ثورة الخوارج على مروان بن محمد، في آنها، في ابتداء خلافته، وقد انتقضت عليه البلاد من أطرافها، وزعزعت ملكه وكادت أن تذروه كرماد في رياح عاصفة، بل هكذا كان، فقد انشق عنه عبد الله بن عبد العزيز ومنصور بن جمهور، وسليمان الأموي وكثير من أعضاء البيت المالك، كما خرج عليه في وقته ذاك بسطام الخارجي، وقويت شوكة المسودة في خراسان بقيادة ابي مسلم

الخراساني، وعظم الاختلاف في خراسان وغيرها بين جنود الخلافة الأموية اليمانية والمضرية، وكانت الشيعة في العراق تتطلع إلى الثورة وتنتظر أن تهيىء لها الأقدار رجلاً يجمع شتاتها لتحاكم الأمويين - الغاصبين برأيها -، وكان ذلك الرجل بعد قليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، الذي نفر منه الزيدية والإمامية بعد أن تابعوه، وبايعوه، وتركوه أكلة سائغة لجيوش الأمويين لما عرفوا قبح طريقته وسوء مذهبه.

في هذا الجو المحموم، المليء بالثورات، والانتفاضات على آخر خليفة أموي بالمشرق، ثار الضحاك بن قيس الحروري وكثر جمعه، وملك ما ملك من بلاد العراق وأطراف سوريا، حتى كاد أن يكون هو الوريث للملك بني أمية الشاسع، وحتى كاد أن يقيم في البلاد الإسلامية خلافة رأسها رجل من الخوارج كما سبق وأسلفنا.

ولكن اليمانية التي انضمت إليه، والتي كانت تشكل أكبر قوة في جيشه، لم تكن لتحارب معه عقيدة، وتديناً، ولا عصبية له، وإنما حاربت معه عصبية على مروان بن محمد والمضريين، لقتلهم يزيد بن خالد القسري، شيخ كل يماني.

فلم تكن حرب هؤلاء اليمانية مع الضحاك حرب إخلاص، كما لم يكن من مصلحة هؤلاء اليمانية انتصار الخوارج، وتحكمهم في بلاد الإسلام، ورقاب المسلمين، ولذلك كتب على هذه الثورة الهزيمة من حيث كان لها أن تنتصر.

ولم تقتصر ثورات الخوارج، بعد يوم النهروان على هذه الثورات الثلاث فقط، بل تعدت ثوراتهم هذا العدد بكثير، فلم يتركوا خليفة أموياً أو عباسياً،

هادىء البال مرتاح النفس، بل كلما رأوا منه شذوذاً في حكمه، وجوراً في سلطانه اعلنوها عليه ثورة جامحة تأكل الأخضر واليابس.

واختلفت ثورات الخوارج باختلاف طبائع الولاة كما يقول الخربوطلي[1] ، فينشطون إلى العمل إذا كان الوالي لين العريكة كما هو الحال في عهد ولاية المغيرة بن شعبة وابن عامر على الكوفة، فقد تركا للخوارج حبلهم على غاربهم، فكثرت ثوراتهم في زمانهما، بخلاف حال الخوارج في أيام زياد الذي لاحقهم تحت كل حجر ومدر، وقتلهم على الظن والتهمة، ففاؤوا إلى السكينة، وإلى القرآن يتدارسونه.

و لم يكن قصدنا سرد ثورات الخوارج، وتاريخها، وأعمالها، بل كان القصد تقديم نماذج عن نتائج ثورتهم العسكرية يوم النهروان.

قتلهم علياً :

في سنة ٣٩ للهجرة حيكت في مكة المكرمة[2] مؤامرة من أفراد من الخوارج، لقتل علي (ع)، ومعاوية، وعمرو بن العاص، لأن هؤلاء الثلاثة برأي الخوارج هم رأس الشرور في الأمة الإسلامية، ولولاهم لكانت الأمة الإسلامية مجموعة الكلمة، موحدة الصف، لا فرق متعددة فيها، ولا شيع متباينة.

وفي هذا الاجتماع بين الخوارج تعهد[3] عبد الرحمان بن ملجم المرادي بقتل علي (ع)، كما تعهد البرك بن عبد الله الصريمي بقتل معاوية، وتعهد ثالث

---

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) شرح النهج، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٣) الطبري، ج ٤ ، ص ١١٠.

منهم واسمه زادويه عمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص والي مصر لمعاوية.

وتعاهد هؤلاء الثلاثة فيما بينهم وبين من حضر مؤامرتهم من الخوارج بالله، وتواثقوا بكتاب الله العزيز، وبالإيمان المغلظة أن لا ينكص أحد هؤلاء الثلاثة عن قتل من تعهد بقتله؛ ثم تواعد القوم على تنفيذ مؤامرتهم في ليلة واحدة في الأقطار الثلاثة مصر وسوريا والعراق، هي ليلة السابع عشر أو ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠ للهجرة.

وهكذا تفرق القوم، بعد العهود والإيمان والمواثيق، وسار عبد الرحمان إلى العراق ، كما ذهب رفيقاه أحدهما إلى سوريا وثانيهما إلى مصر ينتظرون أن يحين الموعد.

وهل كان الأشعث بن قيس الكندي بعيداً عن جو هذه المؤامرة؟ بل هل كان باستطاعة الأشعث أن يرى شراً فلا يعين عليه، وقد سبق أن الخليفة الأول أبا بكر أسف على عدم قتله الأشعث لما ارتد، لأنه برأيه لا يرى شراً إلا أعان عليه.

ولقد صدقت نبوءة الخليفة في هذا الرجل، فلم ير شراً إلا كان رأساً فيه. وتجيب النصوص التاريخية عن هذا التساؤل، وتثبت أن الأشعث كان يعيش المؤامرة كأبرز أفرادها، بما له من مكانة، وزعامة على عشيرته، وفي بلده، وعلى أحلافه من عشائر اليمن؛ على أن الأشعث كان قد هدد الإمام، وعرَّض إلى أنه سيفتك[1] به. وعلى أن ابن ملجم وإن كان من مراد أصلاً إلا أن عداده في كندة، فهو حليف

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٤٣ .

لهم؛ ومضافاً إلى ما تقدم فإن الأشعث كان من البارزين المعروفين في انحرافهم عن علي (ع) [1] ، يعقد المجالس بذمه وعيبه، مع أمثاله من المنحرفين والانتهازيين، وطبيعي جداً في عصر كان الترابط القبلي فيه على أشده أن يلجأ الحليف إلى من حالفه يطلب منه عونه في مهامه، خاصة إذا كانت هذه المهام مما توافق طبيعة السيد المحالف؛ زد على ذلك أن الأشعث خطب مرة إلى علي (ع) ابنته أم كلثوم، فجبهه الإمام (ع) بشدة، ورده رداً قبيحاً، وهذه كلها أسباب تقوي النصوص التاريخية التي نصت على اشتراكه وتدعمها، بل وتصيرها شيئاً لا يقبل الجدل.

وهذه النصوص التاريخية تثبت ما ادعيناه، وتجعله مع ما تقدم حقيقة واقعة، فقد ذكر ابن أبي الحديد[2] والمسعودي[3] أن ابن ملجم لما ذهب لتنفيذ المؤامرة ـ صبيحة قتل علي (ع) ـ مر بالأشعث في بعض أطراف المسجد، فقال له الأشعث: (النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح)؛ فلو لم يكن الأشعث على علم بالمؤامرة وأحد أقطابها فمن أين علم بأن الرجل ذهب للاغتيال، وما هذا التشجيع للقاتل.

وأما اليعقوبي فيذكر[4]: أن ابن ملجم لما ورد الكوفة نزل على الأشعث بن قيس، وأقام عنده شهراً يحد سلاحه ويستعد لأمره؛ والنصان التاريخيان يكاد كل منهما أن يكون متمماً للآخر.

ويأبى المؤرخون، إلا أن يدخلوا العنصر النسائي في هذه المؤامرة، فيروون

---

(١) شرح النهج، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢) شرح النهج، ج ٣ ، ص ٤٣ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ١ ، ص ١٨٨ .

أن ابن ملجم لما ورد[١] الكوفة التقى بقطام بنت الأخضر التيمية ـ تيم الرباب ـ وكان علي (ع) قد قتل يوم النهروان أباها وأخاها؛ وكانت قطام على جانب من فتنة وجمال، فخلبت لب ابن ملجم حتى أسرع إلى خطبتها لنفسه، فرضيت به زوجاً إذا وفّى لها المهر، وهو أعجب مهر تطلبه ذات خدر، ثلاثة آلاف درهم، وعبد، وجارية، وأن يثأر لأبيها وأخيها من علي فيقتله.

ورضي ابن ملجم بالشروط كلها، بل أخبرها أنه لم يقدم الكوفة إلا لغرضه ذاك. وهكذا تمت المؤامرة إن صحت هذه الرواية بعناصرها جميعاً، عنصر اللؤم والحقد والشر، ويحمل رايته الأشعث، وعنصر الثأر وتحمل رايته قطام، وعنصر الثورة على الحكام المتمثل بكل خارجي.

ودعا ابن ملجم لمناصرته ومعونته على أمره خارجي ذكر المؤرخون اسمه، وهو شبيب بن بجير الأشجعي، كما أعانته قطام برجل من ابناء عمومتها من الخوارج أيضاً اختلف المؤرخون في اسمه هل هو وردان بن مجالد أو مجاشع بن وردان.

وفي الموعد المعين لتنفيذ المؤامرة جاء القوم مع الفجر إلى المسجد الأعظم في الكوفة، وجلس ابن ملجم وصاحبه شبيب مقابلين للسدة التي يخرج منها علي (ع) للمسجد؛ وجاء علي (ع)، وكان من عادته أن يغلس[٢] إلى المسجد عند الفجر، فإذا دخل المسجد صاح بالناس: الصلاة، الصلاة، ينبههم إلى أن وقتها قد حان،

---

(١) المصادر المتقدمة الثلاثة .

(٢) الغلس: شدة حلكة الظلام.

فلما دخل علي (ع) إلى مسجده واتجه إلى محرابه تعاوره الرجلان بسيفيهما وهما يصيحان: (الحكم لله، لا لك يا علي).

وقعت ضربة شبيب بطاق في المحراب فلم تؤثر أثراً، وأما ضربة ابن ملجم فأصابت رأس علي (ع) على قرنه، عاش الإمام بعدها إلى صبيحة يوم واحد وعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة وهناك لحق بالرفيق الأعلى مجيباً داعي ربه.

قتل علي ونجا معاوية وعمرو بن العاص، فأما صاحب معاوية فقد ضربه على إليته ضربة لم تقتله، ولم يمت منها معاوية، وأما صاحب ابن العاص، فإن عَمراً شُغل ليلة المؤامرة ببعض شأنه وأناب عنه لإمامة القوم في صلاتهم قاضي مصر خارجة.

وكان خارجةٌ هذا فداءً لعمرو في تلك الليلة الليلاء فقتل الخارجي خارجة وسلم عمرو بن العاص.

وليتها إذ فدت[1] عمراً بخارجة   فدت علياً بما شاءت من البشر

وهكذا انتهت هذه المؤامرة بأن فجعت الإسلام بأعظم رجل عرفه العالم بين رجالات الإسلام بعد الرسول ، وهدت ضربة ابن ملجم من الإسلام أعظم أركانه، وقوضت أقوم دعائمه، وجرحته جرحاً لم يندمل.

ومات علي (ع) كما كان يرغب، وكم من مرة عرّض نفسه لنيل هذه السعادة، ومات علي شهيداً في سبيل الواجب، مات شهيداً في سبيل العدل، وفي سبيل الحق المر. ومضى على ما مضى عليه النبيون والمرسلون، والهداة المصلحون،

---

(١) فوات الوفيات، ج ٢ ، ص ٢١ وهذا البيت من قصيدة لعبد المجيد بن عبدون الفهري.

مات قبل أن يعرف العرب عظمته، وكنه شخصيته، حتى قام من جيرانهم الفرس من يفرق بين الحصى والجوهر - كما يقول[1] الفيلسوف اللبناني جبران - فعرفوا العالم حقيقته، وكشفوا عن كنه عظمته.

(١) في مقدمته لكتاب مائة كلمة - جمع الشيخ توفيق البلاغي طبع العرفان.

الفصل الرابع

آراؤهم الدينية وفرقهم

عرفنا فيما سبق بعض آراء الخوارج الدينية والسياسية في التحكيم والخلافة، تلك الآراء التي كانت أول الأمر معدودة محصورة، ثم اتسعت وكبرت وتشعبت مع مرور الزمن.

ويتفق الخوارج بجميع فرقهم ، وشيعهم على أمور:

الأول : تكفير[1] عثمان وعلي (ع) ، وطلحة والزبير وعائشة، وجميع أصحاب الجمل من أهل البصرة فقط، وجميع أصحاب صفين من الفريقين، إلا من تاب، وأناب من التحكيم، وإنما كفروا عثمان من السنين الست الأخيرة من حكمه للأحداث التي أحدثها بزعمهم، ويكفرون علياً بعد التحكيم، لقبوله له، وعدم توبته منه.

(١) التبصير في الدين للاسفراييني، ص ٣٦ .

الثاني : زعموا أن مرتكب الكبير من الذنب كالسرقة والزنا كافر مخلد في النار، وبهذا الأصل كفروا عثمان، وطلحة والزبير، وعائشة أم المؤمنين، ومعاوية وعمرو بن العاص، وأبا موسى الأشعري، وبالأصل الأول كفروا علياً (ع)، وقالوا إن مرتكب الكبير من الذنب كافر ملة، و لم يخالف في ذلك الا النجدات منهم فإنهم قالوا: إن مرتكب الذنب الكبير كافر نعمة، لا كافر ملة، أي ليس كفره كفراً حقيقياً، بل هو كالكافر لعصيانه ولخلوده في النار.

الثالث : جواز الخروج على الإمام، والسلطان الجائر أي سلطان جائر، ذلك لأنهم يعتبرون السلطان الذي لا يدين بمذهبهم ولا يعتنق عقيدتهم جائراً، وإن كان أعدل أهل الأرض، كخروجهم على علي (ع) في النهروان وغير النهروان، وكخروج شوذب[1] الخارجي على الخليفة الأموي التقي عمر بن عبد العزيز.

الرابع : اتفاقهم[2] على عدم حصر الخلافة في قريش أو في العرب، بل تعميمها لكل مسلم جدير بها، إذا اجتمعت فيه شروط الاستخلاف عندهم، والتي يعتبرونها في الإمام، وقد استخلفوا قطري بن الفجاءة، وشبيب وعبد ربه الصغير، وعبد الله بن يحيى طالب الحق، وغيرهم الكثير والكثير.

الخامس: جوزوا أن لا يكون في العالم إمام، أو خليفة أصلاً، إذا عرف الناس واجبهم نحو ربهم، ونحو أنفسهم، ونحو بقية أخوانهم من الناس من قريب أو

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص ٢٠٣ .

(٢) الإمامة والسياسة، ج ١ ، ص ١٧٤ .

بعيد، وعملوا بالمعروف، وانزجروا عن المنكر، وحفظوا ثغور الإسلام ، وإنما يجب نصب الخليفة لإقامة هذه الشعائر، فإذا قامت بدونه فلا يجب نصبه.

هذه هي المبادىء الأولية لمذهب الخوارج، وعقيدتهم التي اتفقوا عليها، وعلى هذه الأصول كانت المحكمة الأولى.

ثم اختلفت الخوارج إلى عشرين[1] فرقة، تميزت كل فرقة بآراء خالفت فيها غيرها مع حفظ المبادىء الأولية الخمسة كأساس عقيدة، وركيزة مبدأ، وأهم هذه الفرق ست كانت لها شهرتها العلمية، أو الحربية، أو العددية:

الفرقة الأولى : المحكمة الأولى[2] وقد عرفت أصولهم، وأول من حكّم منهم عروة بن حدير، ويقال له: عروة بن أديَّة - وهي أمه - وقيل يزيد بن عاصم المحاربي، وكان أول زعمائهم عبد الله بن الكواء، وشبث بن ربعي.

وهؤلاء هم الذين حاربوا علياً يوم النهروان بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي، وذي الثوية حرقوص بن زهير البجلي سنة ٣٧، وبأصول مذهبهم المتقدمة كفروا الأمة، واستعرضوها بالسيف.

الفرقة الثانية: الأزارقة ! أتباع أبي راشد نافع بن الأزرق الحنفي، وهذه الفرقة أقوى فرق الخوارج وأشدها شوكة، وأعظمها جنداً، وأكثرها انتشاراً في البلاد في عصرها.

وقد خالفت هذه الفرقةُ المحكمة الأولى بأمور:

---

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص ١٩٢ .

(٢) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٧٢ ، والتبصير في الدين، ص ٤٦.

(٣) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٨٦، والتبصير في الدين، ص ٤٩ .

أولاً : أطلقوا لفظ الشرك على من خالف مذهبهم، ولم يكتفوا بتكفيره بخلاف المحكمة الأولى الذين اكتفوا بتكفيره.

ثانياً : أطلقوا لفظ الشرك على من وافقهم في مذهبهم، ولكنه لم يهاجر إليهم، وهم القعدة عن الحرب، ولم يغدروهم.

ثالثاً : قالوا: إن أطفال مخالفيهم من سائر المذاهب مشركون مخلدون في النار.

رابعاً : أباحوا قتل أطفال ونساء مخالفيهم.

خامساً : قالوا : إن من ارتكب ذنباً كبيراً كالزنا والسرقة وأمثالهما كافر كفر ملة، لا كفر نعمة، ويعنون بذلك أنه مرتد عن ملة بقتل ولا تقبل له توبة أبداً، وأنه مخلد في النار.

وصاحب بدعهم هذه كما يقول الاسفرايني: هو عبد[1] ربه الكبير، وهو أحد الموالي، ومن ذلك تعرف تغلل الموالي في الدعوة الخارجية.

سادساً : إسقاط الرجم عن الزاني المحصن لعدم ورود ذلك في القرآن المجيد، وتخصيص حد القذف بخصوص من قذف النساء دون الرجال.

سابعاً : حرمة التقية، وعدم جوازها قولاً أو عملاً.

وقد غلب هؤلاء الأزارقة في خلافة عبد الله بن الزبير، وشطراً كبيراً من ولاية الحجاج، على الأهواز، وأرض فارس، وكرمان، وكثير من بلاد العراق.

---

(١) التبصير في الدين ، ص ٤٩ .

الفرقة الثالثة : النجدات[1]: اتباع نجدة بن عامر الحنفي، خالف النجداتُ الأزارقة بأمور:

أولاً : منع إباحة قتل أطفال ونساء مخالفيهم وإن كانوا مشركين.

ثانياً : عدم تكفير القعدة عن الحرب من جماعتهم، وأهل عقيدتهم، وقبول عذرهم، ولذا يسميهم البعض بالعاذرية.

ثالثاً : تكفير نافع بن الأزرق ومن تابعه من الخوارج لأنهم كفروا القعدة، وأباحوا قتل الأطفال والنساء.

رابعاً : قالوا: إن الدين أمران: ــ الأول ــ معرفة الله تعالى، ورسله ﷺ، وتحريم دماء المسلمين ــ ممن هم على مذهبهم، والإقرار بما جاء من عند الله إجمالاً من غير حاجة إلى تفصيل.

ــ الثاني ــ الناس معذورون فيما سوى ذلك إلى أن تقوم الحجة في الحلال والحرام.

خامساً : استحلوا دماء أهل الذمة والعهد، وتبرأوا ممن حرمها. ثم اختلف هؤلاء النجدات فيما بينهم وكفر بعضهم بعضاً، وقتلوا رئيسهم نجدة بعد أن كفروه، ولهم آراء كثيرة لا موضع لتفصيلها هنا.

الفرقة الرابعة : الصفرية[2]: أتباع زياد الأصفر، أو زياد بن الأصفر، وقيل إنهم سموا بالصفرية لصفرة ألوانهم حيث أنهكتهم العبادة، وقد خالف هؤلاء الصفريةُ الأزارقة والنجدات والإباضية بأمور:

---

(١) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) الملل والنحل، ج ١ ، ص ٢١٦، والتبصير في الدين، ص ٥٢ .

أولاً : لم يكفروا القعدة منهم عن الحرب وعذروهم كالنجدات بشرط أن يوافقهم القعدة على مذهبهم وفروعهم.

ثانياً : لم يسقطوا الرجم عن الزاني.

ثالثاً : لم يبيحوا قتل أطفال ونساء من حكموا بشركهم.

رابعاً : جوزوا التقية بالقول دون العمل.

خامساً : إن من ارتكب كبيراً من الذنب لا يكون مشركاً ولا كافراً، حتى ولا كفر نعمة ولا يطلق عليه أحد الاسمين؛ وإنما يطلق عليه اسم الذنب الذي ارتكبه، فمرتكب السرقة يقال له سارق، ومرتكب الزنى يقال له: زانٍ وهكذا.

الفرقة الخامسة : الإباضية[1]! أتباع عبد الله بن إباض، أو عبد الله بن يزيد بن اباض. وقد امتازت هذه الفرقة عن غيرها من فرق الخوارج بمسائل هي:

أولاً : إن المسلمين من غير مذهبهم كفار غير مشركين، يصح زواجهم وميراثهم، وإذا حارب هؤلاء المسلمون الاباضية فيحل منهم أموالهم من سلاح وكراع عند الحرب، وأما ما عداه فهو حرام؛ كما حرموا قتل غيرهم اغتيالاً إلا بعد إعلان حرب، وإقامة حجة.

ثانياً : إن بلاد من خالفهم من المسلمين هي دار إسلام، إلا معسكر السلطان أو الخليفة، أو الإمام فإنها دار حرب تجوز وقد تجب مجاهدتها.

ثالثاً : مرتكب الذنب الكبير عندهم غير مؤمن، ولكنه ليس بكافر كفر ملة وإنما هو كافر كفر نعمة.

---

(١) الملل والنحل، ج ١ ، والبصير في الدين، ص ٥٦ .

رابعاً : توقفوا في أطفال ونساء المشركين.

خامساً : جوزوا تعذيب أطفال المشركين على سبيل الانتقام؛ ولهم خبط كثير غير ذلك.

وقد خرج هؤلاء على مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، فوجه إليهم عبد الملك بن عطية إلى أطراف اليمن، ففلّ جمعهم، وقتل رؤساءهم أمثال أبي حمزة الخارجي الذي هاجم المدينة وله فيها خطبته المشهورة، التي عدد فيها الخلفاء، من الراشدين والأمويين وذكر سيرهم، وعاب من استحق العيب عنده منهم، كما قُتل في هذه المعركة من الخوارج رئيس الاباضية الأكبر عبد الله بن يحيى طالب الحق في بعض نواحي صنعاء، وكانت المعركة بين هؤلاء وعبد الملك بن عطية سنة ١٣٠ هجرية.

وقد اختلف الاباضية بعد ذلك إلى فرق وشعب، واختلفوا في مسائل، كفر بعضهم بعضاً بسببها.

الفرقة السادسة : اليزيدية[(١)] ! اتباع يزيد بن أنيسة، ولهؤلاء آراء انفردوا بها عن جميع فرق الخوارج، وخرجوا ببعضها عن الإسلام، منها:

أولاً : تولوا المحكمة الأولى من الخوارج والإباضية، وتبرؤوا من سائر فرق الخوارج، كالأزارقة، والصفرية والنجدات، وغيرها.

ثانياً : زعموا أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم، وينزل عليه كتاباً كُتِبت فيه أسماء ينزل على ذلك النبي دفعة واحدة، ويكون هذا الرسول الأعجمي

---

(١) الملل والنحل، ج ١ ، ص ١١٥ - ١١٦ . وعن الفرق بين الفِرَق، ص ٢٦٣ .

بكتابه هذا ناسخاً لشريعة محمد ، كما زعموا أن هذا الرسـول الأعجمـي سيكون على ملة الصائبة المذكورة في القرآن، لا صائبة حران.

ثالثاً : إن مرتكب الذنب كافر مشرك، سـواء كـان المرتكـب للذنـب مـن أهل عقيدتهم، أو لم يكن.

رابعاً : إن كل ذنب سواء كان كبيراً كالسرقة والزنا، أو صغيراً كالكذب على غير الله ورسوله فهو شرك.

خامساً : من شهد لمحمد ﷺ بالرسـالة مـن أهـل الكتـاب، مـن النصـارى واليهود، فهو مؤمن وإن لم يدن بدين الإسلام.

وهـذه الفرقـة لا تعـد مـن الإسـلام في شـيء لتكذيبهـا الله سـبحانه ورسوله ﷺ، في أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وأن شريعته ناسخة الشـرائع جميعها، ولا تنسخها شريعة أخرى.

وهناك فرق كثيرة من الخوارج، لها خبط كثير، وآراء عجيبة مسلية، منها: الحفصيـة، والحارثيـة، والمكرميـة، والعجـاردة، والشـيبانية، والرشـيدية، والثعالبـة والجازمية ، والأطرافية ، والصلتية، وغيرها كثـير، ولكـل فرقـة مـن هـؤلاء آراؤهـا الخاصة بها، وانحرافاتها الشديدة، وإن كان لهم ما يوافقون بـه أهـل الإسـلام إلا أن ما يخالفونهم به أكثر.

البــاب الرابع

■ الثورة الحسينية

الفصل الأول

الطور الدموي

في سنة ٦٠ للهجرة لحق معاوية بن أبي سفيان بربه، وأفرد في لحده، بعد أن أوصى لابنه يزيد بالخلافة من بعده بوصايا[1] جماعية، ووصايا فردية، إن دلت على شيء فإنما دلت على عظيم تفهمه لنفسية الجماهير، ونفسية الأفراد على السواء.

أوصاه بأهل العراق! أن يتجاوز عن زلاتهم، وأن يرفق بهم، وإن سألوه إن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أهونُ من أن يشهر عليه مائة ألف سيف. وأوصاه بأهل الشام إن يجعلهم بطانته، وعيبه، وأن لا يطيل حبسهم في غير شامهم لئلا يجروا على أخلاف غيرهم.

وأوصاه بأهل الحجاز، أن يكرم من قدم عليه منهم، ويتعهد أشرافهم إن غابوا، فإنهم أصله، وعشيرته وأوصاه بأربعة كانوا هم محط أنظار العالم، وقبلته في ذلك العصر.

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٢٠٦ ، والطبري، ج ٤ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

أخبره أن أهل العراق غير تاركي الحسين (ع) حتى يخرجوه، فإن ظفر به فليصفح عنه.

وأوصاه بابن عمر بأن لا يحرك ساكناً لأنه رجل وفذته العبادة وليس بطالب خلافة إلا أن تأتيه عفواً.

وأوصاه بعبد الله بن الزبير! أن يقطعه إرباً إرباً إن وثب عليه، لانه يراوغه مراوغة الثعلب، ويجثم له جثوم الأسد، ينتظر أن تحين الفرص.

وأخبره عن عبد الرحمان بن أبي بكر بأنه ليس له من النباهة والمقام عند الناس، ما يمكنه من طلب الخلافة.

وصية لو طبقت لكفت العالم الإسلامي كثيراً من الشرور، وكثيراً من الدماء الغزيرة المراقة من آلاف وآلاف.

ولكن أنى لرجل كيزيد شغلته القرود والفهود، والخمرة المعتقة، والفتيات الروميات والفارسيات الجميلات، أنى لرجل استوعب لهوه وعبثه ليله ونهاره، وصبحه وعصره، أن ينظر في مصالح الأمة، وصالح نفسه، وأن يدير شؤون شعب ويرعى مصلحة مملكة، ويحفظ هيبة خلافة.

ولما تولى يزيد الخلافة لم يكن همه، إلا أخذ البيعة على الأربعة من أشراف الحجاز، ورؤساء المسلمين وعلى الأخص الحسين بن علي (ع)، وابن الزبير، فكتب[1] إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة الأموي أن يأخذ البيعة من الاثنين فإن

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

امتنعا ضرب عنقيهما، ووجه إليه برأسيهما، كما أمره أن ينفذ هذا الحكم بكل من يمتنع عن البيعة من أهل المدينة.

وربما كان الوليد هذا رجلاً صالحاً حقيقة، وربما كانت أواصر الرحم، والمُثُل الإنسانية أقوى عنده منها عند قريبه يزيد، وربما كان الوليد أكثر دربة وحنكة، وأشد دهاء من يزيد وعرف أن في قتل الحسين (ع) زعزعة ملك السفيانيين، كل ذلك ممكن، فلما وصله[1] كتاب يزيد لم يعمل به، ولم يشدد على الحسين في أخذ البيعة منفرداً، ولم يستمع إلى مروان بن الحكم حين يأمره بقتله، ولم يستجب أن يقطع رحمه[2]، وقال للحسين (ع) انصرف حتى تأتينا مع الناس، وكان جزاء الوليد على موقفه هذا - موقف النصح لخليفته، وموقف القريب من ذي قرابته أو موقف المسلم المؤمن - كان جزاؤه العزل[3]، واستبدل به يزيد مروان بن الحكم ولكن بعد خروج الحسين عن المدينة.

لم يعد الحسين (ع) يأمن على نفسه[4] وعلى دمه من فجرة بني أمية يحركهم مروان بن الحكم، وقد وشى هؤلاء بقريبهم الوليد تساهله مع الحسين (ع)، فخرج من المدينة إلى حرم الله الأعظم، إلى بيت الله حيث يأمن على نفسه ككل خلق الله. خرج الحسين (ع) ليلاً خائفاً مترقباً، من أن تغتاله شياطين بني أمية في حرم جده، وإلى خروجه يشير الشاعر الشيعي:

خرج الحسين من المدينة خائفاً   كخروج موسى خائفاً يتكتم

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٢٠٨ .

(٢) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٣) المناقب، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .

(٤) الأخبار الطوال، ص ٢٠٩.

وفي مكة استقرت بالحسين الدار وقتياً، وانجفل إليه[1] الذين كانوا يحيطون بابن الزبير، واجتمعوا عنده حلقاً، من طالب مال، وطالب فقه، ومن مستنير بوجه الرسالة، وبقية النبوة، ومن مستنكر استخلاف يزيد، وغاضب لجعل خلافة الرسول ملكاً متوارثاً وحكماً دكتاتورياً وكأن المملكة بستاناً أو ضيعة للخليفة وذي قرباه، يأكلون منها ما شاؤوا، ويتفضلون على البقية الإسلامية متى شاؤوا، وكيف شاؤوا.

وبلغ أهل الكوفة والعراق امتناع الحسين (ع)، عن البيعة ليزيد، وهم شيعة علي وشيعة الحسن، وشيعة الحسين. على أن سيرة معاوية فيهم لم تكن بالسيرة المرضية، بتسليطه زياد بن سمية، وسمرة بن جندب، والمغيرة بن شعبة على رقابهم، يقتلونهم على الظن والتهمة. وعلى أنه لم يكن قد مضى وقت طويل يتناسى فيه أهل العراق، والشيعة خاصة قتل معاوية للصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي مع صحبه والتابعي المشهور عمرو بن الحمق الخزاعي، والطواف برأس الثاني منهم في المدن والأرياف، حتى كان أول رأس طيف به في الإسلام.

أضف إلى ذلك كله ما كان من منع معاوية وولاته الشيعة حقوقهم المالية والمدنية، فأقصاهم عن مناصبهم كأبي الأسود الدؤلي وإبراهيم بن مالك بن الحارث النخعي وإضرابهما، ومنع القسم الأكبر من الشيعة أعطياتهم ورواتبهم وحقوقهم التي جعلت لهم من الله ورسوله أسوة بسائر المسلمين، والأهم من كل ذلك أن أهل العراق عامة، والشيعة خاصة كانوا يرون معاوية مبتزاً[2] للملك، مغتصباً

---

(١) الأخبار الطوال: ص ٢٠٩.

(٢) سيأتي ذلك في بعض كتب القوم للحسين (ع) بنصه وألفاظه.

للخلافة من أهلها، وأنه تأمر على هذه الأمة بغير رضا منها؛ وكانوا يتطلعون إلى رأس وزعيم يجمع كلمتهم، ويثور بهم، وهم سراع حينذاك إلى نصرته ومؤازرته، فكيف إذا كان هذا الرأس الذي يجمعهم على الهدى، ويطلب بهم سبيل الحق هو سبط محمد ﷺ وابن علي وفاطمة (ع).

وعلم أهل الكوفة بموت معاوية[1]، واستخلاف يزيد، وامتناع الحسين عن بيعته، فرأوا أن ما كانوا يصبون إليه من القضاء على دولة الطغيان، وما كانوا يرجونه من إقامة دولة عدل وحق تسير على هدي محمد وسنن علي (ع) قد قارب التحقق، بانفراج الأمر بموت معاوية.

علم أهل الكوفة بكل هذا، وفي نفوسهم ما قدمنا، فأخذوا يكاتبون الحسين (ع) ليبايعوه على الخلافة وتسليم الأمر إليه، زاعمين أنهم يقتلون أنفسهم دونه.

وطبعاً لم تكن هذه الكتب من العوام، ولم تكن من أناس عاديين، وإنما كانت من أمراء، وزعماء، ووجهاء، وكبار اهل الكوفة، كشبث بن ربعي وحجار بن أبجر، وحبيب بن مظاهر وأضرابهم من أهل الزعامة والمركز المرموق.

وتكاثرت هذه الكتب حتى بلغت الآلاف عداً، أو كما قيل إنها ملأت خرجين، وتنافس أهل الكوفة في إظهار شعورهم وولائهم لأهل البيت عامة، وللحسين خاصة، من استعدادهم لنصرته، وإقامة دولته، حتى ورده في يوم واحد[2] ستمائة كتاب، وقيل في أعدادها غير ذلك كثير.

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٢٠٩ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٦ .

وسواء أكانت الأرقام لعدد الكتب البالغة أرقاماً عالية حقيقة، أو مبالغ فيها، فهي تكشف عن التهاب الشعور لدى الجماهير العراقية للخلاص من الحكم الأموي الجائر.

ولكن الحسين (ع) لم يكن لتغره هذه الفورة العاطفية الجماهيرية الكوفية، بل أراد أن يعرف عن كثب مدى الحماس الجماهيري، ومدى ما تكنه صدور هذه الجماهير من إيمان وإخلاص للقضية، ومدى تعاونها في ثورة من هذا القبيل؛ وقرر إرسال شخص أمين على مصلحة الأمة، ومصلحته، ليتعرف أخبار الناس، ويعرف المد الشعبي للثورة.

ولا بد لنا أن نستعرض بعض تلك الكتب، ونشير إلى لمحات خاطفة عن مرسليها، فمنها:

بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن علي[1] من سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة الغزاري، ورفاعة بن شداد البجلي، وحبيب بن مظاهر وعبد ا لله بن وال، وشيعته من المؤمنين والمسلمين.

سلام عليك! أما بعد! فالحمد لله الذي قصم عدوك، وعدو أبيك من قبل، الجبار العنيدَ، الغشومَ الظلوم، الذي تعدى على هذه الأمة فانتزعها أمرها، وغصبها فيأها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل[2] خيارها، واستبقى اشرارها، وجعل

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٦ .

مال الله دولة بين جبابرتها، وعتاتها، فبُعداً له كما بَعُدت ثمود؛ وإنه لا إمام لنا غيرك فاقبل، لعل الله يجمعنا بك على الحق.

والنعمان[1] بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك أقبلت أخرجناه حتى يلحق بالشام إنشاء الله، والسلام عليك يا ابن رسول الله ﷺ، وعلى أبيك من قبلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وثان من هذه الكتب وهو ما كتب إليه شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر العجلي، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعزرة بن قيس، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، ومحمد بن عمير بن عطارد التميمي[2] .

أما بعد !

فقد اخضرَّ الجناب، وأينعتِ الثمار، فإن شئت فاقدم على جند لك مجند، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك.

وكان مرسلو هذا الكتاب أول من غدر ونكث، وخرج لحربه، وكلهم رئيس عشيرته، وزعيم قبيلته.

وثالث[3] هذه الكتب، وهو آخر ما وصل إلى الحسين (ع) من ذلك العديد الهائل من الرسائل. ولم يكن هذا الكتاب من شخص خاص، ولا من أشخاص معينين، بل كان كتاباً عاماً، من عامة الشيعة، والثائرين معهم لكرامة الإسلام على الحكم الأموي، وهو:

---

(١) هو والي الكوفة لمعاوية وأوائل أيام يزيد.

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٣) اليعقوبي؛ ج ٢ ، ص ٢١٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين أما بعد!

فحي هلا، فإن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل العجل، والسلام. هذه نماذج ثلاث من الكتب التي وردت للحسين من أهل العراق، ممن يزعم أنه يفدي الحسين بنفسه، ويفدي الإسلام بمهجته.

وإذا استعرضنا الكتاب الأول ولاحظنا شيئاً عن مرسليه، نعلم أنهم كانوا صادقي الإيمان موفون بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للحسين ولرب الحسين، فقتل بعضهم يوم الطف، كحبيب بن مظاهر، وعبد الله بن وال. وحالت دون سائرهم الحوائل، فمنعتهم من المشاركة في هذا الجهاد العظيم، إذ خلدهم عبيد الله بن زياد الجون بمجرد وصوله الكوفة، على أنهم غسلوا عنهم العار، وقتلوا في سبيل مبدأ الحسين (ع) ونصر قضيته. وكانوا هم رؤساء التوابين كسليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة وغيرهما.

وإذا استعرضنا الكتاب الثاني، ومرسليه، وحياتهم، نجدهم كلهم جماعة من الاستغلاليين، الانتهازيين، والذين يعبدون الله على حرف.

كان هؤلاء الرؤساء قادة في جيش علي يوم صفين بل كان شبث بن ربعي قائد[1] الرجالة جميعها في ذلك اليوم، ثم مال الكثير منهم مع الخوارج بل كانوا من رؤسائهم[2] ـ لما قويت شوكة أولئك ـ ثم رجعوا إلى علي لما ضَعُف أولئك، ثم غدروا بالإمام الحسن السبط بعد توكيد البيعة والعهد، فهل تأبوا الآن واصلحوا؟

---

(١) راجع كتاب صفين لابن مزاحم وغيره.

(٢) راجع ثورة الخوارج.

بل كانوا هم رؤساء من خرج لقتاله وحربه، وكانوا أول من غدر ونكث وفجر، وأما أصحاب الكتاب الثالث فهم العوام والأتباع الذين يسيرهم زعماؤهم كيف شاؤوا ومتى شاؤوا ينصرونهم على الحق والباطل.

قلنا إن الحسين (ع) لم يطمئن لكل تلك الكتب، وأراد أن يعرف رأي الجماهير الشعبية، ويعرف رأيها في الثورة عن كثب، فقرر إرسال رجل خبير، مخلص، وفي للمصلحة الإسلامية العليا، يمثله، ويكون بمنزلة نفسه في المهمة، وكان أولى بتلك الصفات سيد أهل بيته مسلم بن عقيل بن ابي طالب.

ودع مسلماً؛ وقال له[1] : يا ابن عم! قد رأيت أن تسير إلى الكوفة فتنظر ما اجتمع عليه رأي أهلها، فإن كانوا على ما أتتني به كتبهم فعجِّلْ عليَّ بكتابك، وإن تكن الأخرى تعجَّل الانصراف.

ثم دفع إلى مسلم كتاباً لأهل الكوفة جواباً على كتبهم العديدة، يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي من أوليائه وشيعته بالكوفة.

سلام عليكم.

أما بعد! فقد أتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم، وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمي، وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، ليعلم كنه أمركم، ويكتب إليَّ بما يتبين له من اجتماعكم.

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢١٠ .

فإن كان الأمر على ما أتتني بـه كتبكـم، وأخـبرتني بـه رسـلكم، أسـرعت القدوم عليكم إنشاء الله.

ونزل مسلم دار المختار بن ابي عبيد الثقفي في الكوفة[1]، واختلفـت إليـه الشيعة، ومن رأى رأيهم في الثورة، وكـثر جمعـه، حتـى كـانوا يـأتون دار المختـار، وينصرفون عنها جهرة، بمرأى ومسمع من والي البلد للأمويين ـ النعمان بن بشير ـ

وهل كان النعمان هذا ضعيفاً أو متضاعفاً؟ أكبر الظن الأول، أو لعله كان يرى أنه يكفيه خروجه على إجماع قومه ـ الأنصار ـ يوم صفين من مناصرتهم علياً ـ وانفـراده مـن بينهـم بمـؤازرة معاويـة؟ أو لعلـه لم يكـن لـه رأي في يزيـد، فلمـا رأى بـوادر الثـورة عليـه لم يحـاول إطفاءهـا، ولا التصـدي لهـا، ولعلـه كـان ضعيفاً حقاً.

وبلغ الخبر يزيداً، أن واليه ضعيف، أو متضاعف، فعزله، وضـم الكوفـة إلى واليه على البصرة عبيد الله بن زياد، وكتب إليـه يخبره خـبر ابـن عقيـل والحسـين، واختلاف الناس إلى ابن عقيل بالكوفة.

وكثر من بايع مسلماً للحسـين مـن أهـل الكوفـة علـى النصـرة، والفـداء، والمـوت في سـبيل دعوتـه، حتـى بلغـوا ثمانيـة عشـر ألـف رجـل، فكتـب[2] إلى الحسين (ع) يخبره بمن اجتمع على نصرته وبعدد من بايعه له.

وكيف يستكين الحسين عن الجهاد، وإرجاع الأمور إلى نصابها، ولـه مـن الأنصار، والأعوان آلاف.

---

(١) الأخبار الطوال، ص ٢١٢ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٨ .

ورأى أن يُشرك أهل البصرة في هذا الجهاد مع إخوانهم الكوفيين، والفوز بخطهم في معركة المبدأ والعقيدة في الوثبة المباركة.

فكتب إلى خمسة[1] زعماء منهم، مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس التميمي، ويزيد بن مسعود النهشلي، ومسعود بن عمر الأزدي، والمنذر بن الجارود العبدي، كتب إلى كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب:

أما بعد! فإن الله اصطفى محمداً على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه، وقد نصح لعباده، وبلّغ ما ارسل له، وكنا أهله، وأولياءه، وأوصياءه، وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فأغضينا كراهية للفرقة، ومحبة للعافية، ونحن نعلم أننا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه.

وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، وأن البدعة قد أحييت، فإن تجيبوا دعوتي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد.

وقد اختلفت مواقف هؤلاء الرؤساء.

فأما المنذر بن الجارود العبدي فقد ظن أن الكتاب مكيدة من ابن زياد يكيده بها، فأرسل الكتاب والرسول إلى ابن زياد، فصُلِبَ الرسول.

وأما الأحنف بن قيس فقد أجاب الحسين[3] (ع) بجواب أقرب إلى المداهنة، والفرار من المسؤولية فكتب إلى الحسين يقول:

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٣) نفس المصدر

أما بعدا فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

وأما يزيد بن مسعود النهشلي ـ فرع من تميم ـ فقد كان المخلص حقاً، والثابت في إيمانه صدقاً؛ الذي يشعر بالمسؤولية الملقاة على كاهله، وكاهل كل مسلم، وأراد أن يتحملها بما فيها من أعباء ضخام، فلما وصله كتاب الحسين، جمع إليه عشائره "بنو تميم[1] وبنو حنظلة[2]، وبنو سعد" يستحثهم على مناصرة الحسين، ومشايعته، ومناهضة بني أمية، فخطبهم، وقال:

يا بني تميم! كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ فقالوا:

بخٍ بخ! أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطا، وتقدمت فيه فرطا، فقال لهم:

إني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه، واستعين بكم عليه، فقالوا:

إذن والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي؛ فقال:

إن معاوية قد مات، فأهون به والله هالكاً، ومفقوداً، إلا أنه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم؛ وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أن قد أحكمه، وهيهات الذي اراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخُذِل، وقد قام ابنه يزيد، شارب الخمور، ورأس الفجور، يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتآمر عليهم، بغير رضا منهم، مع قصير حلم، وقلة علم، لا يعرف من الحق موطىء قدمه؛ فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين.

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(٢) وبنو حنظلة وبنو سعد فرعان من تميم ونحن نثبت ههنا النصوص بحرفيتها إفادة للقارىء.

وهذا الحسين بن علي، ابن رسول الله ﷺ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته، وسنه، وقدمه، وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم وجبت به لله الحجة، وبلغت به الموعظة.

وقد كان صخر بن قيس ـ الأحنف ـ انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن بنت رسول الله ﷺ، ونصرته. لا يُقصِّر أحد عن نصرته إلا أورثه الله الذل في ولده، والقلة في عشيرته.

وها أنا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها؛ ومن لم يُقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فاحسنوا رحمكم رد الجواب.

وأجابت العشائر سيدها بأجوبة مختلفة، أطاعه البعض ووافقه على النهوض، واستمهله فريق يراجع الرأي ويعمل الفكر.

وليس في الأجوبة محض إيمان، ولا عقيدة صافية وإنما هي طاعة عمياء للرئيس والزعيم، أو النظر إلى المصلحة الشخصية؛ وأما المصلحة العامة فلم تكن محل نظر أو لعلها لا تستحق ذلك عندهم، وهذه أجوبتهم، قالت حنظلة مجيبة يزيد بن مسعود على دعوته لهم للجهاد.

أبا خالد! نحن والله نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلا خضناها، ولا تلقى والله شدة إلا لقيناها، ننصرك والله بأيدينا، ونفديك بدمائنا، إذا شئت فافعل.

وأجابت بنو سعد فقالت:

أبا خالد. أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل فحمدنا رأيه، وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع الرأي، فنأتيك برأينا.

وأجابت بنو عامر بن تميم فقالت:

أبا خالد! نحن بنو ابيك، وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نوطن إن ضعنت، والأمر إليك فادعنا نجبك، ومرنا نطعك، والأمر لك إذا شئت.

فقال ابن مسعود ينعى على بني سعد تماهلهم في الرأي:

والله يا بني سعد! لئن فعلتموها لا رفع الله عنكم السيف أبداً، ولا زال سيفكم فيكم؟

ثم كتب يزيد بن مسعود إلى الحسين (ع) يخبره عن استعداده وعشائره للأخذ بنصيبهم من الجهاد بين يديه، ومناصرة دعوته، يقول[1] :

وصل كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني إليه من الأخذ بخطي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإن الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونه أحمدية، هو أصلها، وأنتم فرعها، فاقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها، وكظها، وقد ذللت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع.

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٨٠ .

وقد وصل الكتاب إلى الحسين (ع) يوم العاشر من المحرم في كربلاء، وقد افرد من أصحابه وأهل بيته ولم يبق معه إلا بعض عبيده، وخدمه، فلما قرأ الكتاب قال: مالك يا بن مسعود! آمنك الله يوم الخوف، وأعزك وأرواك يوم العطش الأكبر.

وسار الحسين بأهل بيته من ابنائه وأبناء إخوته، وأبناء عمومته وبعض صحبه بعد أن وصله كتاب مسلم بن عقيل يخبره باجتماع الكوفة على مناصرته ومعاضدته، وبعد أن بلغه أن جيشاً ليزيد بن معاوية قد وافى مكة بقيادة عمرو بن سعيد بن العاص الأموي المعروف[1] بالأشدق، فأسرع بالخروج قبل إتمام حجه، وخرج يوم التروية خوفاً من أن تغتاله شياطين بني أمية في حرم ربه.

وفي الكوفة خان أهلها العهد، ونكثوا البيعة، والإيمان، وغدروا وتخاذلوا، وتفرقوا بمجرد وصول ابن زياد إليهم، وبمجرد أن بذل لبعضهم دنانيره، وبعد أن خوّف الآخرين بجنود أهل الشام، فافردوا قائدهم مسلم بن عقيل وحيداً، وقُتل بعد أن أظهر من ضروب الشجاعة، والبسالة، والإيمان والعقيدة، الشيء الكثير[2]، حتى بَهَر أعداءه، واستحق إكبارهم، وإعجابهم.

وتولى قتاله من كتب[3] إلى الحسين (ع) يمنيه النصرة على أعدائه، والجهاد بين يديه، عمرو بن الحجاج، ومحمد بن الأشعث، واضرابهما.

وقُتِل مع مسلم شيخ من شيوخ العراق، وزعيم من أكبر زعمائه في عصره ذاك، هاني بن عروة سيد مراد لأنه كان قد أجار مسلماً، وقد رأى من العار أن يخفر جواره شأن العربي الأبي.

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٢) (٣) أعيان الشيعة.

وكل القوم مسلماً، وكلوا هانئاً، ومثلوا بهما.

وقد خلّد الشاعر العربي الكبير الفرزدق قتل البطلين في شعره حيث يقول:

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظري
إلى هانيء في السوق وابن عقيل

إلى بطل قد هشّم السيف وجهه وآخر يهوي من طمار قتيل

وكان قتلُ مسلم إيذاناً بانتهاء الجولة الأولى بين الثائرين والحكام؛ وبانتهاء الجولة الأولى على تلك النتيجة المؤلمة عرفت النتيجة الحربية للجولة الثانية، نتيجة المعركة الدامية، بين الخير والشر، بين الروحية والنفعية، بين المبادىء السامية والشهوات النفسية، بين الحق والباطل، بين الحسين ويزيد.

ومن مكة، من حرم بيت الله تعالى تابع الحسين سيره، بعد أن وصل إليه كتاب مسلم بن عقيل يخبره باجتماع القوم عليه، ومبايعتهم له والموت في سبيل دعوته الحقة.

وفي الطريق كانت الأخبار تصله عن أهل الكوفة متضاربة[1] مختلفة، ولكنها كلها تكاد تنطق بالنتيجة الحتمية لمعرفة الناس بغدر أهل الكوفة، بعلي أولاً وبالحسن ثانياً وبحجر بن عدي ثالثاً.

وكأن الحسين كان يعرف تلك النتيجة الحتمية، ولكنه ثائر والثائر لا يرهبه الموت في سبيل عقيدة ثار لأجلها، ثائر كما كان جده الرسول وكما كان أبوه علي، فهما أول من حمل راية الثورة على الأوضاع الفاسدة، وعلى عبادة الأصنام

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٨٧ .

وأرخصوا في سبيل عقيدتهم التي ثاروا لأجلها كل غال، فلم ينكصوا عن تضحيــة، و لم يبخلوا بدم، فضلاً عما هو أرخص منه.

ويقول الحسين لأبي هرة الأزدي، وقد التقى هذا به في طريقه إلى الحجـاز، وقد سأله عن مخرجه من حرم الله تعالى، وحـرم[1] جـده محمـد؟ فقـال لـه الحسـين: (ويحك يا ابا هريرة إن بني أمية أخـذوا مـالي فصـبرت، وشتموا عرضـي فصـبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسهم الله ذلاً شاملاً، وسـيفاً قاطعاً، وليسلطن عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهـم امـرأة فحكمت في أموالهم، ودمائهم[2].

فإذاً كان الحسين يعرف النتيجة الحتمية للجولة المقبلة بعد أن بانت النتيجـة للجولة الأولى بينه وبين أعدائه، ولكنه كـان ثـائراً غاضبـاً لله، فليسـر إذاً في طريـق الله، ولتكن النتيجة مهما كانت.

وربما فكر الحسين (ع) بالرجوع حفاظاً على من معه من أهل وأصحاب بعد أن عُرفت النتيجة، ولو كان وحده لما ساوره مثل هذا الخاطر أبـداً، سـاوره خـاطر الرجوع بزرود[3] لما عرف قتل مسلم وهانيء، ولكن آل مسلم أبـوا إلا أن يمضـوا لشأنهم فإما النصر، وإما الفوز بما فاز به مسلم من الشهادة في سبيل مبدأ وعقيدة.

وقطعاً كان موقف هؤلاء الفتيــة مشـجعاً للحسـين علـى السـير قدمـاً نحـو هدفه، لم يعد يساوره خاطـر الرجوع بعد أن عرف نية أهل بيته، وإنهـم تأثـروا

---

(١) حرم ا لله ـ مكة المكرمة ـ وحرم الرسول المدينة المنورة.

(٢) أعيان الشيعة ج ٤ / ص ٩٢ و ٩٣.

(٣) مكان بين مكة والكوفة

وسلكوا خطاه في ثورته، وفي هدفه، وغايته، سواء كانت النتائج لهم أم عليهم.

وفي الكوفة خاف ابن زياد دخول الحسين إليها وخشي من أن تنقلب الدفة عليه ويميل عليه الميزان ويصبح من هو جند له اليوم جنداً عليه غداً، لما للحسين من مكانة سابقة وحب متأصل وتقدير موروث عند المسلمين كافة، فرأى أن يحيط الكوفة وجهتها بجند كثيف يمنع الداخل إليها من الدخول، والخارج منها من الخروج، وأرسل جنده ترابط الطرق وتمنع الحسين من دخول المدينة.

وفي ذي جُشَم[1] التقى بألف من أولئك الجند[2] على رأسهم الحر بن يزيد الرياحي، جاؤوا يجعجعون بالحسين ويمنعونه من دخول الكوفة أو الرجوع إلى الحجاز أو إلى غيرها من أرض الله الواسعة.

وصل هذا الجند الكثيف وقد أهلكه وخيله العطش، ولا ماء في تلك الأرض غير ما كان في روايا الحسين مما أعده لتلك المفازة.

وكان أسهل شيء على الحسين أن يقضي على هذا الجيش الكثيف بجماعته القليلة العدد، بل كان بإمكانه أن يقضي عليهم عطشاً بأن يستقر في مكانه يومين أو ثلاثة وهو معه من الماء ما يكفيه، وليس مع أعدائه منه ما يبل أحدهم به شفتيه.

ولكن الحسين ثائر كما قلنا، ثائر في سبيل مبدأ وعقيدة، لا طالب حكم وسلطة لذات السلطة والحكم، وأيضاً أبت عليه نفس أبية ورثها عن خير جد وعن خير أب أن يرى أمام ناظريه إنساناً يتضور عطشاً ويكاد يهلك وهو قادر على

(١) ذو جشم مكان على مراحل من الكوفة من جهة الحجاز.

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٩٣ .

إحيائه، ولو كان ذلك الانسان عـدوه، ولـو كـان يريـد بـه القتـل، مـا أشـبه اليـوم بالأمس، وكأن التاريخ يعيد نفسه، هذا معاويـة في صفـين يسـبق عليـاً إلى الشـريعة ويملكها ويحوطها بجيش لجب زعماً منه أن يقتل علياً وجيشه، ويملك عليٌّ الماء بعـد أن ينكب معاوية بأعز أبطاله ورجاله، ثم يجعل الماء مباحاً بينه وبـين معاويـة ويـأبى أن يعامله بالمثل تأبى عليه نفسه الأبية ذلك، ويُعلِم أصحابه والمعترضين على سياسته والمطالبين بمنع معاوية وصحبه الماء كما منعهوهم أولاً، يعلمهـم أن مـا جـاء لأجله ليس الماء، ولا المال ولا الدنيا، ولا السلطة، وإنما جاء لإحياء سـنة، ولإماتـة بدعـة، والحسين بن علي يقتفي خطوه، ويستنير بفعله وقوله وهديه.

واتفق أخيراً الحسين والحـر علـى شـكل مـن المسـير لا يوصـل الحسـين إلى الكوفة، ولا يرجعه إلى أرض الحجاز.

وفي الثاني مـن محرم سـنة ٦١ وصـل الحسـين كربـلاء[١]، وأبـوا عليـه أن يتعداها لأمر ورد للقائد من الوالي ابن زياد، بل أبوا عليه التحرك مـن تلـك الأرض الرمضاء.

وفي اليوم الثاني أو الثالث لنزوله كربلاء بدأت الجيـوش تصـل مُنضمّـة إلى جيش الحر بن يزيد حتى بلغت اثنين وعشرين ألفاً على رأي ابن عمـاد[٢] الحنبلـي، وبلغت خمسة وثلاثين ألفاً عند ابن[٣] شهراشـوب، وتجـاوز بعضهـم هـذه الأعـداد حتى بلغ بالجيش إلى السبعين ألف مـحـارب، وقال غيرهـــم أن الجيش لم يتجاوز

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٠١.

(٢) شذرات الذهب، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) مناقب أهل البيت، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

الأربعة آلاف محارب، ولا ندري أي الأخبار في عدد الجيش هي الصحيحة، ولكن الذي ندريه أن عدد الجيش كان ضخماً جداً لأسباب كثيرة منها:

أولاً : مكانة الحسين في نفوس المسلمين، فإنه كان قبلتهم الثانية، لا يعدلون به شخصاً كائناً من كان.

ثانياً : كان أهل العراق في تذمر شديد من الحكم الأموي، بل في غليان وثورة نفسية تنتظر المحرك الرأس الذي يقودها إلى الثورة الدموية، ومحاكمة الأمويين إلى السيف، وقد رأيت بعض ذلك في بعض الكتب السابقة منهم للحسين وفي خطبة يزيد بن مسعود النهشلي في عشائره.

ثالثاً : ما فعله بنو أمية من قلب السلطة من خلافة دينية زمنية تقوم على الشورى أو على النص، إلى ملك متوارث.

رابعاً : كثرة الشيعة في العراق.

خامساً : كثرة الخوارج في العراق فإنه مهدهم الأولي، والخوارج بطبيعتهم يفضلون حكم رجل من أهل البيت على حكم آل أبي سفيان وجميع بني أمية، وإن كانت عداوتهم لكل البيتين، بل كان الخوارج يؤيدون كل ثورة تبرز إلى الوجود على الحاكم أملاً في إضعاف هذا الحاكم، أو القضاء عليه، وربما كان الحاكم الجديد وإن كان عدواً للخوارج أضعف من الماضي، وأهون عليهم منه.

لهذه الأسباب كلها أو لبعضها كان على ابن زياد أن يحتاط ويستعد بأكبر الأعداد من الجيوش تحسُّباً لما قد يأتي به القدر، من انتفاضات، وانتكاسات في بعض فرق جيشه.

أضف إلى كل ذلك أن اتباع الجيش الذي أرسل لحرب الحسين كان بأعداد كبيرة جداً من عبيد وخدم، وكلها تنضوي تحت راية الجيش المحارب، وكلها تحسب من المحاربين.

وأما أفراد القوة الثائرة فكانت خمسين راجلاً واثنين وثلاثين فارساً على رأي[1] ، وكانت هذه القوة سبعة وسبعين محارباً في قول آخر[2] منهم سبعة عشر محارباً من أهل البيت وستون محارباً من الأصحاب والأنصار، وأما اليعقوبي[3] فيتردد في عددهم بين الاثنين وستين محارباً وبين الاثنين وسبعين محارباً، ولكن السيد[4] الأمين جعلهم مائة وستة من المحاربين.

وهذا التفاوت إنما نتج عن عدد الغلمان والعبيد، فقد ذكرهم السيد الأمين بأسمائهم، فعد معهم عبد الله بن الحسن وهو غلام دون العاشرة وعد معهم عبد الله الطفل الرضيع للحسين، كما عد جون وهو عبد كان لأبي ذر الغفاري.

وكان ابتداء المعركة أن حَصَّن القائد عمر[5] بن سعد نهر العلقمي[6] بفرقة من الفرسان خشنة بقيادة عمرو بن الحجاج الزبيدي تمنع الحسين وأصحابه من الاستقاء منه، زعماً منهم أن يمنعون الحسين الماء كما مُنع عثمان منه، وكأن الحسين هو الذي قتل عثمان وكأنه هو الذي حال بينه وبين الماء، وكأنه ليس هو الذي أوصل اليه الماء مع أبيه، وكأنه لم يجرح في سبيل الدفاع عن عثمان.

---

(١) المناقب لابن شهراشوب ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

(٢) شذرات الذهب، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٦ .

(٤) أعيان الشيعة ، ج ٤ ، ص ١٣٥ .

(٥) الأخبار الطوال، ص ٢٢٨ .

(٦) العلقمي فرع من الفرات قرب كربلاء جف وشق على مقربة نهر الحسينية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجلى العباس بن علي هذه الفرقة عن الشريعة بكبكبة مؤمنة من أصحاب الحسين وحمل الماء إلى أصحابه ونسائه وأطفاله، ولكن لم تكن قوته بالقوة الكافية للاحتفاظ بهذا النصر المؤقت، بل لم يكن بإمكانها الاحتفاظ بجبنة من الشريعة تكون ملجأ لهم من العطش، فلم يستقوا بعد يومهم السابع ذاك.

عرف الحسين (ع) النتيجة مسبقاً، لأنه ثائر أراد أن يركّز مبادئه على ما لا تقوى الأيام على إفنائه، أراد أن يركزه على دمه الغالي العزيز، ليعلِم العالم الاستهانة بكل غال ورخيص في سبيل مبدأ قويم، وعقيدة صحيحة، واستهدف للقتل، بل لأبشع أنواع القتل والتمثيل ورضّ الصدر بعد الظهر بحوافر الخيول وسنابكها، عرف كل ذلك فاستهان بالحياة، بالجسد الفاني، إذا كان فيه حياة لمبدإ وعقيدة ودين.

ولكنه مع ذلك كله لم يرد لأهل بيته وفتيانه وغلمانه واصحابه هذا المصير.

لعل بعض أصحابه قد استهول المصير فأراد التنحي، ولعل، بعض أهل بيته كان في نفسه التنحي والنجاة بحشاشة روحه بعد أن عرف النتيجة، أو لعل الحسين أراد ألا يقدم بهم على المعركة الفاصلة المعروفة النتيجة إلا على بصيرة منهم جميعاً، من كل واحد منهم، لعله أراد من كل واحد منهم أن يقدم على تلك المعركة الفاصلة المعروفة النتائج، كإقدامه هو بنفسه، إقدام الفادي المخلّص.

فجمعهم ليلة العاشر من المحرم بعد أن طلب[1] من أعدائه تأجيل القتال إلى غد ذلك اليوم، وخطبهم يحثهم على التنحي، ويقيلهم بيعتهم إياه، وقال لهم في

(١) الأخبار الطوال، ص ٢٢٨.

أخريات كلامه (وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً، أنتم في حل من بيعتي، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري) [1].

وأثبت أهل بيته وصحبه أنهم ثائرون حقاً، لا تغرهم سلامة نفوس، ولا يردعهم عما ثاروا لأجله ملاقاة حتوف.

أثبتوا أنهم تلامذة محمد وعلي والحسين بحق، وأجابوا سيدهم وإمامهم باستهانتهم بالموت وسرورهم بنيل الشهادة بين يديه، والسعادة الأبدية، وبانتصارهم المعنوي، بانتصار مبادئهم، والانتصار الفكري، اللذين لا يوازيهما شيء من الانتصار المادي والانتصار العسكري، وأجابه مسلم بن عوسجة فقال له[2]: والله لو علمت أني أقتل، ثم أُحيا، ثم أحرق، ثم أذرى، ثم يفعل ذلك بي سبعين مرة ما تركتك، فكيف وإنما هي قتلة واحدة، ثم الكرامة إلى الأبد. وقال له زهير بن القين[3]: والله يا ابن رسول الله! لوددت أني قتلت، ونُشِرت، يفعل بي ذلك ألف مرة وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن نفس هؤلاء الفتية، من إخوانك، وولدك، وأهل بيتك.

وأجابه أخوه العباس بن علي[4]، عنه وعن إخوته بني علي، وعن بني عمه: و لم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً.

(١) مناقب ابن شهراشوب، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .

(٢) المناقب لابن شهراشوب، ج ٣ ، ص ٢٤٨.

(٣) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٠٨.

(٤) نفس المصدر.

وانبرى آل عقيل يقولون، وقد قال الحسين لهم: يا بني عقيل! حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم اذهبوا فقد أذنت لكم؛ فانبروا إليه بأصوات قد غلبها الألم لدعوته واستنكارها وقالوا له: سبحان الله؛ فما يقول الناس لنا: إنا تركنا شيخنا، وسيدنا، وبني عمومتنا، خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا نفعل ذلك، ولكن نفديك بأنفسنا، وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وقلما يجد الباحث المثقف لا في التاريخ الإسلامي فحسب، بل في التاريخ العالمي أصحاب ثائر أكثر إخلاصاً، وأعظم تضحية، وأثبت قدماً، وأبرز شجاعة، وأشد إقداماً، وأجود نفساً بالنفوس من أصحاب الحسين (ع)؛ وما أعظم شبههم في ثباتهم بأصحاب السيد المسيح وحواريه، الشبه بين السيد المسيح والحسين وقد ترسم الحسين خطى محمد والمسيح، فكان المجدد لمبادئهما، والباني لها حصوناً من جماجم ودماء، تحفظها من الأعاصير.

العدالة والحرية، أظهر مبادىء محمد ﷺ، والمحبة والسلام أبرز مبادىء المسيح (ع)، مبادىء يشد بعضها إزر بعض، ولا غنى لبعضها عن البعض، فكان لا بد لها من مدافع، وحارس، لما سيطرت روح الجشع على الحكام آنذاك فزرعت البغضاء بين أفراد الأمة، وأشاعت الخوف، والجور، وقضت على العدالة، وأحلت محلها روح الطبقية والعصبية والاستغلال والفساد في جميع أشكاله، وأشاعت الفتنة

في كل مجتمع مهما صغر حتى أصبح العالم الإسلامي على حافة هوة سحيقة.

وكان الحسين هو الحارس وكان الحافظ، لمبادىء محمد والمسيح، والمواجه الصلب لسلطات الاستغلال والفساد.

نعم. كان دم الحسين هو الذي أيقظ الجماهير الإسلامية من سهدها، ونبهها إلى مصيرها القاتم وألهب شعورها فهبت تدافع عن أقدس المبادىء وأزكى المثل، تسترخص في سبيل ذلك المال والدم، فكانت واقعة الحرة وكانت ثورة التوابين، وكانت ثورة المختار، وثورات آل الزبير وابن الأشعث والزيود وغيرها كثيراً، إلى أن كانت آخرة الثورات ــ ثورة العباسيين ــ فكالت لبني أمية بصاعهم، وسقتهم بكأسهم الأوفى وقتلتهم بسيف بغيهم، وطبقت على الأمويين أحكامهم التي طبقوها على غيرهم.

وكانت هذه الانتفاضات الشعبية أولى انتصارات الحسين، انتصارات مبادئه، وعقيدته.

يوم المعركة :

في ذلك اليوم، يوم الإثنين أو يوم[1] الجمعة، في العاشر من المحرم من سنة ٦١ هـ نشبت الـمعركة بين الفريقين، فريقان لا تكافؤ بينهما من حيث العُدة، ولا من حيث العدد، ولا من حيث توفر أي سبب من أسباب البقاء، ولا تكافؤ بينهما

(١) اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

أيضاً من حيث الحالة المعنوية، ولا من حيث قوة المبدأ والعقيدة في نفوس أفرادهما.

كان جيش ابن سعد يزيد على العشرين ألف محارب غير الخدم والأتباع على اقل الروايات المعتبرة، وكان تام العُدة، موفور الماء والطعام، درباً على القتال والنزال حارب ضد الروم وفارس، وحاز الانتصارات، وفتح كثيراً من البلاد، وهدم كثيراً من الحصون وهزم العديد من الجيوش، لأنه كان يحارب عن مبدأ، ويدافع عن عقيدة.

وأما في يوم الطف فقد انعكست الآية في نفسه، فكان يعلم أنه إذ يحارب الحسين مع بني أمية، إنما يحارب العقيدة التي كان يدافع عنها في غير هذه المعركة، وإنما يهدم المبدأ الذي اعتنقه، وحمله إلى العالم يبشّر به، ويحارب لأجله، فلم يكن يحارب الحسين إلا خوف عقاب الحكام، وإلا طمعاً في مالهم وذهبهم.

وأما الثوار فإنهم لم يتجاوزوا الثمانين محارباً، أضناهم الجوع، وأهلكهم العطش، فالطعام وإن توفر لهم، إلا أنهم عدموا الماء، ولا طعام بدون ماء، ومع ذلك فقد كانوا أقوى الفريقين معنويات، وأكثرهم طمأنينة نفسية، لأنهم كانوا يدافعون عن عقيدة، ويحاربون لمبدأ.

ورتب كل من القائدين جنوده، وتهيأ للصراع الدموي الفاصل.

ورأى الحسين أن يغدو إلى ربه فيهم، فخطبهم، ووعظهم، وخوفهم ما هم مقدمون عليه، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً وتجبراً، واصراراً على الطغيان، وسفك الدم الحرام.

ونشبت المعركة بين الفريقين، ابتدأها قائد الأمويين عمر بن سعد[1]، فأوتر قوسه، ورمى بسهمه نحو عسكر الحسين، واستشهد قواده على أنه أول رام.

وكانت المعركة أولاً هجوماً ودفاعاً، ثم اعتمد أصحاب الحسين البراز فإنه أشفى لنفوس، وأبين أثراً، إذ يظهر عياناً في حومة الوغى، الصابر ـ الشجاع من الناكص ـ الجبان، وتقدم أصحاب الحسين أولاً وفدوه وأهله بنفوسهم، ودافعوا عنهم بمهجهم، وصلوا الحرب وحدهم، ولم يرضوا أن يشترك فيها واحد من أهل البيت وفيهم عين تطرف، أو أذن تسمع، واستقبلوا الأسنة بصدورهم، وعانقوا السيوف بنحورهم، وأظهروا من ضروب الشجاعة والبسالة، وأفانين الحرب رقماً لم يُحطم بعدهم، وأثروا في أعدائهم الأثر البيِّن حتى نادى عمرو بن الحجاج الزبيدي[2] ـ أحد قادة ابن سعد ـ أصحابه: ويلكم يا حمقاء! أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المِصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرزن إليهم منكم أحد، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، فصدقه ابن سعد، ومنع جيشه البراز.

ولما برز عابس بن شبيب الشاكري[3]، وكان من فرسان العرب وأبطالها، حتى عُدَّ مقامه بمائة من شجعان الرجال نادى مناد أهل الكوفة في أصحابه: ويلكم هذا أسد الأسود، هذا عابس بن شبيب لا يبرزن إليه أحد، وتحامى الناس مبارزته، ورضخوه بالحجارة من بعيد، حتى قُتل عابس.

وأدى أصحاب الحسين ما عليهم لله من نصر دينه، حتى سقطوا عن آخرهم صرعى في ميدان الشرف، وساحة العزة والكرامة.

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١١٥ .

(٢) المناقب لابن شهراشوب، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .

(٣) أعيان الشيعة، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

ثم تقدم بعدهم أهل البيت، وأخذوا مكانهم، يتسابقون لنيل الشهادة، والفوز بالانتصار للمبدأ والعقيدة، وكانوا من الشجاعة بالمحل الرفيع، والمقام السامق، وكلهم من ولد شيخ الأبطح أبي طالب الذي يقول فيه الرسول : لو ولد عمي أبو طالب الناس جميعاً لكانوا كلهم شجعاناً، على أن موقفهم ذاك كان منتهى الشجاعة، والجرأة، ولقد صوَّر أحد الشعراء شجاعة أصحاب الحسين وأهل بيته بأجمل صورة حين يقول[1] :

لبسوا القلوب على الدروع واقبلوا   يتهافتون على ذهاب الأنفس

وتسابق أهل البيت لارتشاف كأس المنية، والفوز بقصب السبق، فكان المجلي فيهم علي بن الحسين الأكبر؛ وكان آخرهم[2] مقدماً ومقتلاً قبل الحسين، قمرُ بني هاشم، وساقي عطاشاهم، وكبش الكتيبة، وحامل اللواء، شجاع اهل البيت العباس بن علي.

أثَّرَ مقتل العباس في الحسين أثراً لم يبلغه مقتل أحد من ولده، أو أهل بيته أو صحبه، وشعر حقيقة بشماتة عدوه، وانحناء ظهره، اليس لواؤه قد سقط، وتعفر بالتراب، وما بعد سقوط لواء الجيش.

الآن أُفرد الإمام والقائد والثائر من كل مدافع ومحامي، إلا من بعض أتباع وخدم وإلا من بعض أطفال وغلمان، وإلا من مريض مدنف، لا يغنون عنه في المعركة، لبس الحسين للحرب لامتها، وادّرع بدرعها، وتقدم[3] إلى خيمة من

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١١٦ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ١٣٠.

خيامه يودع طفلاً رضيعاً له، فأخذه بين يديه يقبله، فرماه أحدهم بسهم ذبحه وهو على صدر أبيه.

تقدم الآن الحسين إلى المعركة، وصلى الحرب بنفسه، وعانق الرماح، واستقبل السيوف وفرى من أعدائه مهجاً وحمل فيهم حملات أنستهم شجاعة الشجعان، وبطولة الأبطال، شجاعة ذكرتهم شجاعة علي وبسالته، أو ليس الحسين بن علي وسبط الرسول ﷺ، وحفيد أبي طالب، وأي شجاع له من مواقف البطولات ما لهؤلاء.

وقد صور أحد الرواة شجاعة الحسين وبطولته تصويراً فنياً رائعاً كأنك ترى ما رأى إذ قال[1]: والله ما رأيت مكثوراً قط قُتِل أصحابه وأهل بيته أربط جأشاً منه، وإنه كان ليشد عليهم، وقد تكاملوا عليه ثلاثون ألفاً، فينكشفون أمامه انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب.

وقد أراد بعض[2] القادة من أعدائه إضعاف عزمه، فجاء شمر بن ذي الجوشن بجماعة من عسكره حتى حالوا بين الحسين ورحله وعياله، فصاح فيهم: يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون.

فاستفهموه ماذا يريد، ولعلهم ظنوا به وهن العزيمة، وخور الشجاعة، فقال

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٣٣ .

لهـم: إنـي أقـاتلكم وتقـاتلوني، والنسـاء ليس عليهـن جنـاح، فـامنعوا عتـاتكم، وجهالكم، وطغاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً.

فأجابه قائدهم شمر: لك ذلك، ثم قال لأصحابه: إليكم عن حـرم الرجـل، واقصدوه بنفسه، فلعمري هو كفوء كريم.

اشتد وطيس المعركة، ونال الحسين من أعدائه قتلى كثيرين، ونالوه بجـراح عديدة قيل هي اثنان وسبعون جرحـاً[1]، وقيـل هـي ثلاثـة وثلاثـون طعنـة برمـح، وأربعة وثلاثون ضربة بسيف غير السهام والنبال، وكل ذلك في مقدم بدنـه، حتـى كان ظهره سليماً من كل آثار المعركة، ولعل ذلك ما دعا الجيوش الأموية لـرض[2] جسده الشريف بحوافر خيلهم بعد قتله.

ولما ضعف الحسين عـن القتـال لكـثرة نـزف الدمـاء مـن جروحـه، أصبح كالنسر المهيض الجناحين.وقد قلمت مخالبه فاحتوشته بغاث الطير تسـتلب حشاشـة نفسه، فضربه أحدهـم في جبينه، ورماه غيره بسهام في حلقـه وضربـه ثـالث بسـيفه على كتفه وضربه رابع على عاتقه، وطعنه خامس في جنبه، ورماه سـادس بنبلـة في صدره، ثم نزل إليه سنان بن أنس أو شمر بن ذي الجوشـن وقيـل خـولى بـن يزيـد، فاحتز رأسه.

احتزوا رأسه، وكأن الله قد نزع كل عطف أو رحمة من قلوبهم، وكـأنهم قد نسوا، ساعتهم تلك أنـه سـبط نبيهـم، وابـن خليفتهـم، ونسـوا أنه إلى الأمـس القريب، قبلتهـم الثانية، وكعبتهم الأخرى، ونسوا ما له في أعناقهم من بيعـة وعهـد وإيمان مغلظة.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٤، والمناقب، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٨٧ .

هذا موقف الرجال يوم الطف، موقف الحسين وأصحابه وأهل بيته، موقف نادر بين مواقف أصحاب البطولات في تاريخ الإنسانية.

الفارس يحارب ويطلب الموت بكل وجه، والراجل يسابقه ولا يرضى أن يسبقه الفارس، والحر يتقدم إلى الموت باسماً، والعبد يركض لا يرضى أن يتقدمه الحر إلى ساحة الشرف، وأما الغلمان والأطفال، فقد استقبلوا الموت بوجوه بائسة، وأفئدة فرحة.

وأما المرأة! فلم تكن يوم الطف أقل شجاعة، ولا أرخص فداء، ولا أقل إخلاصاً وجهاداً من الرجل، هذه أم عمر[1] بن جنادة السلماني تأمر ولدها عمر — وهو شاب في مقتبل عمره، وعنفوان شبابه، تأمره بنصر الحسين والجهاد بين يديه لما قُتِل والده، فيستأذن الشابُ سيده، ويأبى الحسين الإذن له، لعل أمه تكره استشهاد ولدها، فيقول الشاب أمي أمرتني بذلك.

ويجاهد ويناضل حتى يُصرع فيُحتز رأسه، ويرمى بالرأس نحو الحسين، فتأخذ الأم رأس ولدها وتقبله وتضعه ناحية وتأخذ عمود خيمة وتتقدم إلى أعداء الإنسانية، تريد جهادهم، فيردها الحسين، إذ ليس على المرأة هذا النوع الخشن من الجهاد. وهذه أم وهب[2] بن عبد الله الكلبي تدفع ولدها إلى معركة الشرف، فيجاهد الشاب ما وسعه جهاد، ويرجع و لم يبق معه إلا حشاشة نفسه، فيسأل أمه هل رضيت فتقول: لا أرضى أو تقتل بين يدي الحسين، فيرجع ويقاتل، ويقاتل حتى يفوز باثنتين، بالشهادة، وبرضا أمه.

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٤٤ .
(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

وكانت خاتمة المطاف في هذه المعركة الرهيبة، والمجزرة البشرية العنيفة، إقبال[1] أنصار الأمويين على سلب رحل الحسين، فاقتحموا الخيام على بنات الرسول، يأخذون أقراطها وحليها وأساورها، وينزعونها ثيابها، حتى بقين عرايا إلا مما يستر العورة، ثم مالوا على القتلى فسلبوهم ما عليهم من سلاح وثياب حتى سلبوا الحسين سراويل كان قد خرقها ومزقها قبل قتله لئلا يُسلبها، فسلبوه إياها، وتركوه عارياً، حتى قطع أحدهم إصبعه ليأخذ خاتماً فيها، ثم قطعت الرؤوس ، وحملت على عوالي الرماح، بعد أن تقاسمتها[1] القبائل، وسارت تاركة تلك الجثث الطواهر تلفحها حرارة الرمضاء، وأشعة الشمس، فلما بَعُد الجيش عن محل المعركة وفي اليوم الثالث لها جاء جماعة من الغاضرية[2] من بني أسد على تستر وخفية، فدفنوا تلك الجثث المطهرة بدمائها وما بقي عليها من ثياب، دفنوها في أرض المعركة، حيث مراقدها الشريفة، ومزاراتها القدسية دفنوها في كربلاء، مهوى أفئدة المؤمنين، ومحجتهم بعد بيت ربهم.

---

(١) المناقب لابن شهراشوب ، ج ٣ ، ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق.

الفصل الثاني

أسباب الثورة ودوافعها

ما أسباب هذه الثورة، وما هي دوافعها وهل كان لا بد منها بحيث تفرضها حالة المسلمين السياسية أو الاقتصادية، أو الدينية، أو أنها كانت انتحاراً وإلقاءً للنفس في التهلكة التي يأباها العقل، ويمنعها الشرع، ولماذا لم يثر الحسين على معاوية، وثار على يزيد خليفته، وهل صحيح أن الحسين قتل بسيف جده لأن الخارج على الإمام مقتول بحكم الشرع الإسلامي؟ أسئلة تبحث عن أجوبة واقعية لا دخل للإقناع الصرف فيها، وتكمن هذه الأجوبة في معرفة أسباب الثورة ودوافعها.

الخلافة موضوع شائك، وهو على وعورته لا يخرج عن هذين الأصلين[1] ـ النص، والاختيار، عند فرقتي الإسلام الكبيرتين السنة بجميع شعبها، والشيعة بسائر شيعها.

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني والمقالات والفرق لسعد الأشعري وغيرها.

النص عند الشيعة أجمع، وهو أن الخلافة والإمامة أمـر ديـني علـى النبي أن يبينها ويوضحها كما بيّن وأوضح سائر الأحكام والدسـاتير، وأنـه قـد فعـل ونـص على خلافة الإمام علي بن أبي طالب وسلالته، وما كان للعبـد أن يختـار لنفسـه إذا كان الله ورسوله ﷺ قد اختارا له.

والاختيار عند السنة أجمع، وهو أن الخلافة مصلحة سياسية زمنية دنيوية ، للمسـلمين أن يختـاروا لأنفسـهم مـن يسيّر سياسـتهم بحكمـة، وإخـلاص، ويحفـظ ثغورهم بعزيمة وشجاعة ويدير اقتصادياتهم بعـدل وإنصـاف ويحفـظ الضعيـف مـن القوي، والمظلوم من الظالم.

ولكل من الفريقين وما تفرع عنهما شروطه[١] الخاصة في الخليفة من كونه هاشمياً أو بكفاية كونه قرشياً؛ منصوصاً عليه من النبي ﷺ أو متفقاً عليه مـن الأمـة جمعاء، أو من بعضها من أهل الحل والعقد، بعد كونه عادلاً، عالماً، شجاعاً عطوفـاً رؤوفاً بالأمة، وإنه أفضل أهل زمانه، أو لا يلزم هذا الشرط.

فإذاً كل من خالف هذه الشروط، أو بعضها لم تكن خلافته على المسلمين شرعية، وجاز لهم الثـورة عليـه، والسـعي في نـزع سـلطانه، وتوليـة خلافتهـم مـن اجتمعت فيه شروطهم.

ودعنا من معاوية، ويكفينا رأي أعـلام الأمـة فيـه مـن غـير الشـيعة. فهـذا الحسن البصري يقول[٢]: (أربع خصال كن في معاويـة لـو لم تكـن فيـه إلا واحـدة لكانت موبقة، افتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخـذ الأمر من غيـر مشورة،

---

(١) الملل والنحل، ج ١ ، ص ٢٤.

(٢) تاريخ ابن الأثير، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

وفيها بقايا الصحابة، وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجراً وأصحاب حجر، فيا ويلاً له من حجر، ويا ويلاً له من أصحاب حجر).

وترى نفس الرأي، ونفس النظرة من زعماء المسلمين وعقلائهم من الشيعة وغيرهم في ذلك العصر إلى معاوية فهذا كتاب سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة[1] إلى الحسين (ع) وفيه يقرران حقيقة عدم شرعية خلافة معاوية على الأمة الإسلامية، وهما من هما في مكانتهما وزعامتهما في الكوفة، ومقامهما السابق الذي اكتسباه بمصاحبة الرسول ﷺ.

وهذا يزيد بن مسعود النهشلي[2] أحد زعماء البصرة، ومن أكابر رؤساء تميم وكل هؤلاء يقرر عدم شرعية خلافة معاوية وأنه اغتصب أمرها بغير رضا من الأمة، وإذا كانت خلافة معاوية باطلة من الناحية الشرعية، لأنه لم يستخلف بنص من نبي أو من خليفة سابق ولا باختيار من الأمة جمعاء أو من أهل الحل والعقد فيها، مضافاً إلى ما ارتكبه مما يباعده عن الأهلية لهذا المنصب الخطير، والمفروض أن خلافة معاوية هي الأصل لخلافة يزيد وإذا كان الأصل فاسداً كان فرعه مثله في الفساد، فإن خلافة يزيد إنما كانت بوصاية من أبيه معاوية ليس إلا. على أن يزيد لم تكن فيه صفة واحدة تؤهله للخلافة اللهم إلا كونه ابن لمعاوية بن أبي سفيان، الخارج على إمام زمانه علي (ع) المتفق على صحة

---

(١) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٢) أعيان الشيعة، ج ٤ ، ص ٧٩ .

خلافته على جميع الآراء والأقوال بين المسلمين. بل كان يزيد جرثومة فساد يعرفه بذلك القاصي والداني من أبناء عصره. كما سبق وذكره بحقه الحسن البصري ويزيد بن مسعود وغيرهما.

ولقد أصبح الرجل على مر الأزمان علماً من أعلام الرذيلة والفساد، والاستهتار بالقيم الإنسانية والمثل العليا والقوانين الإسلامية. ولو اعتذر معتذر عنه بقتل الحسين (ع) لأنه نازعه سلطانه فأي عذر له في سبي نسائه، وهتكهن وتسييرهن في المدن والقرى.

وإن اعتذر معتذر له في قتله ما يزيد عن أربعة آلاف[2] من أهل المدينة، لأنهم أرادوا خلعه فأي عذر له في إباحتها لجنده أياماً ثلاثة يهتكون أعراض نسائها وأبكارها ويقتلون شيبها ويذبحون أطفالها وينهبون أموالها ثم يأخذون البيعة على أهلها على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية يجوز له بيعهم وهبتهم، واسترقاقهم بشتى أنواع الاسترقاق.

وهب أن ليزيد عذراً في قتاله عبد الله بن الزبير داخل مكة بلد الله الحرام الآمن، فأي عذر له في ضربه الكعبة بيت الله الحرام ومحج العالم الإسلامي، والموضع الذي قدسته الإنسانية منذ أن وجدت على الأرض الرسل.

أليست هذه الأعمال كلها كاشفة عن نفس كافرة بالمبادىء، ملحدة بالقيم، مكذبة للرسل.

---

(١) الموبقات: الذنوب الكبيرة.

(٢) الإمامة والسياسة، ج ٢ ، ص ٩.

وليس أدل على عدم شرعية خلافة يزيد ومعاوية من إقرار معاوية بن يزيد الخليفة الأموي الثالث والمستقيل من خلافته لأنه رأى عدم شرعيتها له ولآله فجمع الناس وخطبهم وقال[1]:

أما بعد، الحمد لله والثناء عليه، أيها الناس! إنا بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا، وطعنكم علينا، ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه، في القرابة برسول الله ﷺ، وأحق في الإسلام، سابق المسلمين، وأول المؤمنين، وابن عم رسول رب العالمين، وأبا بقية خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتى أتته منيته، وصار رهناً بعمله، ثم قلد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعَظُم رجاءه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقَلت منعته، وانقطعت مدته، وصار في حفرته رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه، ثم بكى وقال: وإن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول ﷺ، وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا بالمتقلد أموركم، ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لإن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً، وإن تكن شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها.

فإذا كانت خلافة خليفة غير شرعية كان حقاً على المسلمين أن يغيروها ويبذلوا في سبيل ذلك الغالي حفظاً على المبادىء والمقدسات والمثل والقوانين من التفتت والتآكل، فخلافة يزيد كخلافة أبيه في عدم شرعيتها عند جميع آراء

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ٢٢٦

المسلمين، والخارج عليها ليس خارجاً على إمام زمانه وليس الثائر عليها إلا عاملاً بقوانين الإسلام ليحفظ للأمة كرامتها وقدسيتها، وقوانينها هذا إذا كان الخليفة المغتصب ليس فيه من شر إلا اغتصاب الخلافة، فكيف إذا أضاف لذلك بأن كان مجمعاً للرذيلة وعلماً على الفساد والاستهتار كيزيد.

والطف ما في الباب ما ذكره المسعودي[1] قال: (رأيت في سنة ٣٢٤ هـ بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحل العلم والأدب، ويتحيز إلى العثمانية كتاباً فيه نحو من ثلاثمائة ورقة، بخط مجموع، مترجم بكتاب ـ البراهين في إمامة الأمويين ـ وفسّر ما طوى من فضائلهم أبواباً مترجمة ودلائل مفصلة يذكر فيه خلافة عثمان بن عفان ومعاوية ويزيد ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، ومن تلاه من نسل مروان، ثم يذكر عبد الرحمان بن معاوية ـ مؤسس ملك الأمويين بالأندلس ـ وأن مروان بن محمد نص عليه، وعهد بالأمر إليه، ثم يذكر عبد الرحمان بن محمد، ومن قبله من ملوك الأندلس ووصف لكلٍ فضائله ومناقبه وأموره التي استحق بها الخلافة وأدعى نصوصاً على أسمائهم وأعيانهم، وادعى الاخبار المتواترة في ذلك) الخ. إلى ما هنالك من ترهات وأكاذيب يندى لها جبين العلم وأهله والدين ومعتنقيه خجلاً.

ولا عجب أن يصدر مؤلف من هذا النوع فإن لكل عصر، ولكل مصر أفذاذه في الكذب والتدجيل، والوضع والاختلاق على صاحب الرسالة وصحبه

(١) في التنبيه والاشراف، ص ٢٩١ .

الكرام وما أكثر هؤلاء في عصرنا الذين أجروا علمهم وضمائرهم لقاء قبضة مال، أو ليلة حمراء مع غادة شقراء.

فيزيد أضاف إلى كون خلافته غير شرعية، أنه كان مغتصباً لها متآمراً على الأمة بغير رضا منها بشهادة الواقع الدستوري لآراء أهل الإسلام، أضاف إلى كل ذلك ما كان يتصف به من الانحطاط الخلقي، وفساد الرأي، واتباع الهوى مما دعا الحسن البصري شيخ فقهاء التابعين أن يعد تولية معاوية العهد لابنه يزيد موبقة من الموبقات لأن ذلك غش للأمة جمعاء، فهل ترى أن أهل البيت على استعداد لأن يغشوا الأمة الإسلامية ببيعتهم ليزيد وشهادتهم له على أنه أهل للخلافة، وجدير بها، كما غش الأمة ابن أبي سفيان.

واسمع آراء أقارب معاوية في يزيد لما أراد أبوه واهل الرأي من المسلمين تولينه العهد بعده، فهذا مروان بن الحكم يوبخ[1] معاوية على تأميره الصبيان لما طالبه معاوية ببيعة يزيد بولاية العهد، وهذا الأحنف يستنكر ذلك وينصح معاوية بأن يُعمل رأيه ويغلّب هواه ويقول له[2]: إن الناس قد أمسوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان يؤتنف، ويزيد حبيب قريب، فإن توله عهدك فعن غير كبر مُغنٍ، أو مرض مضنٍ، وقد حلبت الدهور، وجربت الأمور، فاعرف من تسند إليه عهدك، ومن تُوله الأمر من بعدك، واعصِ رأي من يأمرك ولا يقدّر لك، ويشير عليك، ولا ينظر لك.

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

وقال عبد الله بن عمر لما كاتبه معاوية يدعوه لبيعة يزيد: نبايعمن يلعب بالقرود والكلاب، ويشرب الخمر، ويظهر الفسق ما حجتنا عند الله[١] ؟

وقال عبد الله بن الزبير لما كاتبه معاوية بذلك: لا طاعة لمخلوق في معصية خالق، وقد أفسد علينا ديننا [٢].

فمبايعة يزيد بالخلافة من أهل العقد والحل من الأمة الإسلامية غش لها كغش تولية يزيد الخلافة سواء بسواء، مع أنه إغراق للأمة في الجهل وحل عرى الإسلام وتفتيت مبادئه بتولية مثل يزيد أو مبايعته، أليس الأمة الإسلامية بأحكام الإسلام وقوانينه تأخذ نحو الأحسن، والأفضل فكيف بها وقد صار أمرها إلى من ليس لهم جدارة الحكم على أمة أو عبد.

فالثورة على يزيد كان لا بد منها أولاً للذود عن ناموس الإسلام، والحفاظ على قوانينه ودساتيره وإيقاف الظالم عن ظلمه، ومنع الغاصب عما اغتصبه، وإرساء قواعد العدالة الاجتماعية التي أسسها الرسول الأعظم ﷺ، وشد أركانها الخلفاء الراشدون من بعده، والتي جاء الأمويون يهدمون أركانها، وينقضون أسسها، ويعيدون المجتمع الإسلامي إلى مجتمع القبيلة تتحكم فيه القوة والعصبية الجاهلية العمياء. فإن من كان مقرباً إلى الرسول ﷺ وإلى الخلفاء الراشدين من بعده بسبب أعماله المجيدة وسيره على هدي الرسول ﷺ أصبح مبعداً في دولة العصبية الجاهلية، كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق، وأمثالهما وإن من باعدته سيئاته وسوء سريرته، وغشه للإسلام والمسلمين، أصبح ليس المقرب فقط

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المصدر السابق.

من خلفاء الأمويين بل أصبح الحاكم على رقاب المسلمين كالمغيرة بن شعبة المشهود عليه بالزنا في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وكالوليد بن عقبة المحدود في الخمر في زمن الخليفة عثمان بن عفان، وكطريد رسول الله ﷺ والمفسد بين عثمان والرعية مروان بن الحكم، وأمثالهم وأمثالهم كثير ممن كان يمتلىء بهم البلاط الأموي وكل ديوان وحكومة لهم.

ولم تبعد هؤلاء ولم تقرب أولئك عند الأمويين إلا العصبية الجاهلية، والحاكم القبلي الذي لا يعترف إلا بالقرابة والعصبة، والمصلحة الشخصية، ولو كان في ذلك إهدار كرامة أمة، وتفتيت مبدأ وحل عقيدة.

وظهر مما سقناه من أدلة وبراهين على أن خلافة يزيد لم تكن شرعية، وأن الخارج عليها غير خارج على إمام زمانه وأن المقتول بها ليس مقتولاً بسيف الرسول ﷺ بل هو مقتول بسيف الظلم والجور والفساد، وأن الثورة على يزيد كان لا بد منها لتصحيح الأوضاع وإيقاف الطغيان عند حده بعد أن استشرى وبعد أن قلب حكم الأمويين للإسلام ظهر المجن وأخذ يفتت عراه بشخص يزيد، فالقتيل في مثل هذه الثورة ليس شهيداً عادياً بل من أعلى درجات الشهداء.

وهكذا قامت الثورة بشخص الحسين (ع) أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأحبهم، وكان النصر المبين، نصر المبادىء والمثل، التي تمكنت من إيقاف الطغيان والفساد على حد ما، وإلى زمان ما.

وها قد بانت الأسباب والدوافع للثورة الحسينية على الحكم الأموي السفياني البغيض، ولنا أن نلخصها بما يلي:

أولاً : الحفاظ على كرامة المسلمين عامة، والعرب خاصة في أن يتولى أمورهم وشؤونهم رجلٌ من غير إرادتهم، وعن غير رضا منهم.

ثانياً : تصحيح الأوضاع المغلوطة والسير على ما كان عليه خلفاء رسول، وإرجاع الأمر إلى أهل الحل والعقد من المسلمين، بعد أن اغتصب الأمويون هذا الحق وجعلوا الخلافة ملكاً وراثياً يتوارثونه.

ثالثاً : العمل على تولية أمور المسلمين الأفضل منهم كما يحكم به العقل والشرع .

رابعاً : تحقيق العدالة الاجتماعية التي ركز عليها النبي الأعظم ﷺ طوال سني حياته بين جميع أفراد الأمة الإسلامية من غير فرق بين سيدهم ومسودهم وحرهم وعبدهم، وتوزيع الأموال بالعدل والقسطاط، وغل الأيدي التي احتجزت هذا المال دون أهله واعتبرت أموال المسلمين وفيأهم لها ولآلها دون سائر أهل التوحيد وعلى الأخص أبناء المهاجرين والأنصار وآل البيت (ع).

خامساً : تولية المناصب، بالكفاءة والأهلية؛ لا بالعصبية والقبلية.



الفصل الثالث

نتائج الثورة

ظن العالم يومذاك كله أن الثورة المحمدية قد انهارت تحت ضربات أعدائها الأمويين وخصوصاً بعد مقتل أمير المؤمنين (ع).

وظن عالم ذلك الزمن أنه لم يبق من تلك الثورة إلا شرارات بسيطة ضعيفة لا يمكنها أن تولد نوراً، أو تنير حالكاً في ذلك الليل المدلهم البهيم.

وظن هؤلاء أن حركة الحسين الثورية ما هي إلا الأنفاس الأخيرة للثورة المحمدية، وأنها لفظتها بمقتل الحسين يوم الطف، وسكنت حركتها إلى الأبد وأن الأمر أضحى بيد الأمويين، وأن بإمكانهم التلاعب بالإسلام والمسلمين مبدأ وديناً وشعباً.

كيف لا، وقد أصبحت قصور خلفائهم ودور أمرائهم موبئة فساد من سكر ودعارة، وفحش ومكر ودجل وزيف، واستهانة بالقيم، وتحقير للكرامة الإنسانية وتذليلها بجميع أنواع التذليل والتحقير.

كيف لا، وقد جهدوا بنشر فسادهم وانحلالهم، وتهتكهم في جميع الأقطار التي يخشونها أن تشعر بواقعها وتتحسس لمسؤولياتها، فبذروا بذور الفساد والدعارة والفسق والانحلال بجميع أنواعه في مدينة الرسول ﷺ، وشجعوا فيها الغناء والفسوق والقمار والشذوذ الجنسي بين الرجال والنساء، ليميتوا في نفوس أهلها روح الثورة على الظلم والجور والفساد، لأن المدينة هي مركز الثقل في الحجاز بل الجزيرة العربية كلها، وأشاعوا ذلك أيضاً في العراق في عاصمتي العراق في الكوفة والبصرة ليقضوا على ما في النفوس العربية الأبية من الإباء والشمم والحرية والغضب للكرامة الإنسانية، ليربوا الشباب على الميوعة والدلع، فتخمد في نفوسهم جذوة المطالبة بالحق والانتصار له، وحتى كانت الفتاة العربية في عاصمة العراق الثانية تغتصب جهاراً على علم ومسمع من عارفيها.

والكوفة والبصرة يومذاك فيهما عشرات الألوف من الجند والمحاربين، لأن مبدأ تأسيسهما أن تكونا ثكنات عسكرية.

لقد اطمأن خلفاء الأمويين، وولاتهم إلى مصيرهم بعض الاطمئنان، ظانين أن لا حسين ثانياً ولا علي جديداً يهدد عروشهم، ويحاسبهم على ما جنت أيديهم من السعي لتدمير الإسلام، والقضاء على ثورة محمد ﷺ ومبادئه.

ولكنهم خاب ظنهم، وتعس جدهم، وخانهم الرأي، وغرهم وزراء السوء من أنفسهم إذ أن الشعلة التي أوقدها محمد ﷺ في نفوس أمته بقيت ولا تزال وستبقى تزال مشتعلة تدفع الظلم وتدمر الجور، وتنير الطريق.

فلم يمض إلا كريثما يركب الفرس (كما يقول الحسين (ع) يوم الطف) حتى اشتعلت النار من تحت أقدام الظالمين، تقض مضاجعهم وتغل سيوفهم وتدك عروشهم.

فكانت ثورة المدينة الطيبة، وكانت ثورة التوابين، وكانت ثورة المختار في العراق، وكانت الثورة الزبيرية في الحجاز والعراق، وكانت ثورات الخوارج هنا وهناك وكانت ثورات غير هذه كثيرة، وكل منها تزعزع العرش الأموي وتنزع ركناً من أركانه وتميل به ذات اليمين وذات الشمال.

وحتى كانت آخر هذه الثورات وأعظمها أثراً ، وأكثرها أتباعاً، ثورة العباسيين بقيادة أبي مسلم الخراساني، فدكت عروش الظلم، وفتتت قواه، وكالت للملوكه بكأسهم الأوفى، وصاعهم المترع، فقتلتهم في كل مكان، وحرقتهم تحت كل حجر، ولاحقتهم في كل زاوية من الأرض، فلا تسمع لهم حسيسا، وإن عاقبة البغي وخيمة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

لقد كان دم الحسين الزكي هو الذي فل عروشهم، وكانت صيحات (يا لثارات الحسين) هي التي دكت معاقلهم وحصونهم ونبهت العالم الإسلامي وجماهيره الشعبية إلى مصيرها القاتم إن لم تثر وترفع عن كاهلها نير الظلم والجور.

فثارت وكان لها ما أرادت.

ولو صحنا اليوم بملء قلوبنا وألسنتنا وأفئدتنا (يا لثارات فلسطين) كما صاح أولئك مخلصين لها، متحملين لمسؤولية النداء بجميع معانيه من التضحية والوفاء والوعي، لفللنا بوقت وجيز دولة الطغيان إسرائيل، ودككنا عروشها، ولجعلنا الاستعمار العالمي يركع على ركبه.

إذ لا ينقصنا العدد ولا المال وهما العصبان الحساسان، والركنان اللذان يرتكن إليهما بمثل هذه الثورات.

ولا ندع أن العباسيين كانوا خيراً من سابقيهم، إلا أن ملوكهم احتجبوا برذائلهم وفسادهم في قصورهم، وفيما وراء أبوابهم عن أعين شعوبهم، على أنه لم يكن فيهم كيزيد بن معاوية يتغنى مع مغنية.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وليس فيهم كوليد بن يزيد المرواني الذي يجعل القرآن الكريم كتاب الله المقدس وفيه دستوره الأعظم هدفاً لنباله وملهاة للعب، حتى إذا مزقه وضعه في زق خمر ثم شرب تلك الخمر وتغنى مع فسقته:

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

و لم يكن فيهم كيزيد بن عبد الملك المرواني الذي يركع ليقبل أقدام

جواريه، حبابة وأضرابها ويقـول لهـا سـكراً واسـتهانة بالإسـلام ومبادئـه والخلافـة وعظمتها (ألا أطير).

بلى طر إلى النار فإنك ومن ولاك واستخلفك جذوة من جذواتهـا وجمـرة من جمراتها.

النتائج الأدبية

كان يوم الطف وما تبعه من أيام الفجائع والمآسي التي حاقت بأهل البيت ميداناً واسعاً لشعراء الإسلام فنفثوا ما اعتمل في صدورهم من أسى وحزن وألم على آل الرسول.

والشعر قبل أن يكون ثقافة وعلماً واطلاعاً وأوزاناً ومقطعات وقوافي ورويا إنما هو موهبة وعاطفة، وهو كما قال شوقي بك:

والشعر موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر يتعب

وهو من دون موهبة، ومن دون عاطفة لا يمكن أن يستساغ، لا يمكن أن يحلق بصاحبه ويرفعه.

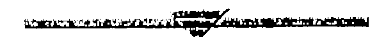
وليس في التاريخ الإسلامي السابق والعالمي على ما نظن من معارك وثورات وتقتيل وظلم ما هو أقرح للفؤاد، وأشجى للنفس، وأدر للدمع، وألهب للعاطفة من واقعة يوم الطف بما اشتملت عليه من قتل الشيوخ، وذبح الأطفال، وهتك الحرائر العربيات، وهن بنات محمد ﷺ وعترته، والتمثيل بالأجساد من قطع الرؤوس ورض الصدور وفصل الأطراف وتحطيم الأضلاع مما لا نعهده في شرقنا كله إلا عند الإسرائيليين في معاملتهم لإخواننا الفلسطينيين.

وخامس حزيران سنة ١٩٦٧ إنما هو طف ثانية وعلينا أن نثأر لها بكل قوة وعزم وتصميم.

فكان من ذلك أن نبغ الشعراء الشيعيون وبروا غيرهم، وملكوا ناحية السحر والبيان اللفظي أمداً طويلاً من الزمن ولا يزالون، حتى قيل وهل الشعر إلا رافضي.

وحتى أن ابن خلكان يتعجب من نبوغ علي بن الجهم في شعره على أنه لم يكن رافضياً وكان منحرفاً عن علي (ع) وآله.

وكان أن الثورة الحسينية كما أعطت العالم الإسلامي جهابذة رجال الفكر والفقه والعلم والفلسفة من تلامذة الأئمة ومن تأخر عنهم وإلى يومنا هذا، وأعطتهم رجال الثورات وافذاذها، كذلك أعطتهم رجال الشعر، وأمراء البيان والفصاحة كأمثال الكميت والفرزدق والمتنبي وأبي تمام والبحتري وابن الرومي والرضي والحمداني والديلمي، وغيرهم مما لا يقع تحت عد أو حصر إلا بشق النفس، وطول البحث والصبر والجلد ولو أردنا أن نلحق بهؤلاء الشعراء السنيين المتشيعين لعلي وأولاده حباً وتقديراً وإن لم يتابعوا الأئمة من أولاده مذهباً ورأياً، لكان بالمستحيل تقصي الجميع وتعدادهم، والوقوف على ما تغنوا به من مآثر علي والحسين (ع) ومدحهما ورثائهما ونشر فضائلهما وعظمتهما من شتى نواحيها، ولقلنا حينئذ عن جدارة واستحقاق ــ الشعر شيعي ــ وكل شاعر إسلامي هو شيعي في شعره.



خاتمــة

تلك بعض ثورات صدر الإسلام ، عالجنا بأمانة وصدق أهم ما جرى فيها من أحداث سعياً وراء الحقيقة ليس إلا.

وإضاءة لفترة زمنية من التاريخ الإسلامي كي تكون لنا عبرة وعظة نستفيد منها في حياتنا المعاصرة المليئة بالمتناقضات، فنكون عوناً للمظلوم ضد الظالم، وحرباً على كل أشكال البغي والعدوان.



فهرس







